ابو خلدون

ساطع الحصري

956
H972sA
C.1

صفحات من الماضي القريب

79165

دار العلم للملايين

بيروت

كانون الثاني ١٩٤٨

مقدمـــة

هذه طائفة من الآراء والأحاديث والمحاضرات كُتبت أو ألقيت أو نشرت .. في أوقات مختلفة. .. في بغداد ، أو بيروت ، أو دمشق أو القاهرة ...

ولقـــد رغبت الىّ « دار العلم للملايين » أن أجمعها وأنشرها بين دفتي كتاب ، فلم أرَ بدّاً من الموافقة على ما أرادت .

إن هـذه الآراء والأحاديث تحوم حول بعض الصفحات من الماضي القريب ..

ذلك الماضي الذي تباعد عنا بعض البعد ، دون أن يمضي إلى حدود التاريخ البحت ..

ذلك المـاضي الذي يكاد يكون حياً الى الآن ... لأن الذكريات التي تركها لا تزال حادة حية ، ولأن عدداً كبيراً ممن شهدوا وقائعه – بل وعدداً غير قليل ممن تأثروا بتلك الوقائـــع وأثروا فيها – لا يزالون أحياء ..

ان هذه الآراء والأحاديث ، تحوم حول بعض الصفحات من ذلك الماضي القريب ...

وقد يسألني سائل : أهي سياسية أم تاريخية ، اجتماعية أم فلسفية..؟ واما أنا ، فلا أرى داعياً لنعتها بأحد هذه النعوت ، على وجه التخصيص .

أفلم يقل أحد المفكرين – منذ عقود من السنين – « إن التاريخ هو السياسة في الماضي؟ والسياسة هي التاريخ في الحاضر »؟

أفلم تكن جميع القضايا التي تعالجها السياسة ويسجلها التاريخ ، من مظاهر « الحياة الاجتماعية » ، بمعناها الشامل العام ؟

أو لم تتلخص مهمة « الفلسفة » في « اقتطاف أينع أزهار الفكر وأنضج أثمار العلم ، بغية مزجها واستقطارها ، لتركيب أثمن العصارات وأذكى الأكاسير ؟ »

فما الداعي لحصر كل بحث من الأبحاث في حدود خزانة من هذه الخزانات المتفرقة التي اعتدنا تسمية كل واحدة منها باسم خاص؟

ان شؤون الحياة معقدة ومعضلة جداً ، وشؤون الحياة الاجتماعية أشد تعقداً وأكثر إعضالاً من جميع ضروب الحياة ، بوجه عام . وفي هذه الحياة الاجتماعية من الشؤون والمسائل المتشابهة ما تأبى طبيعته التفرق والتوزع على الخزانات التي ذكرنا أسماءها آنفاً .

ولهذا السبب ، لم أرَ أن أنعت هذه الآراء والأحاديث ، بالسياسية ، أو التاريخية أو الاجتماعية أو الفلسفية ...

انها آراء وأحاديث قيلت وكتبت في مناسبات مختلفة ، ولكنها استهدفت في جميع هذه المناسبات غاية واحدة ، هي : تفنيد وتصحيح بعض الأخطاء الشائعة ، مع تحذير الأذهان من الانخداع

بالدعايات الخلابة .. في التاريخ وفي السياسة ..

ولذلك أعتقد ان هذه الآراء والأحاديث التي تحوم حول بعض الصفحات من « الماضي القريب » ، لن تخلو من بعض الفائدة .. لشبان « الحال الحاضر » ولرجال « الآتي القريب » .

أبو خلدون

فيصل الكبير

•

لقيته لأول مرة في دمشق ، عقب عودته من مؤتمر الصلح في باريز ، استعداداً لاستقبال لجنة الاستفتاء الاميركية . ولا ازال اذكر تفاصيل تلك الملاقاة ، بكل تفرعاتها وجميع انطباعاتها :

دخلت عليه ، ليلا ، في قاعة من قاعات قصر الجسر ، وكان جالساً على كرسي في احد اركان القاعة ، بجانب مصباح كهربائي شديد التنوير . وكان يرتدي لباساً يختلف عما كنت قد اعتدت رؤيته على « شرفاء مكة » في الآستانة : فعوضاً عن الجبة السوداء الغليظة التي تستر البدن والعمامة البيضاء المفلطحة التي تتوّج الرأس وتترك ذيلها يتدلى الى الجانب .. فعوضاً عن ذلك اللباس الشريفي التقليدي ، كان يرتدي رداء رقيقاً ابيض وكوفية فضفاضة بيضاء . وكان بياض هذا اللباس ناصعاً ، لا يتخلله شيء غير زركشة العقال الذي يتلألأ حول الرأس ، وبريق الخنجر الذهبي الذي يبدو عند الخاصرة . وكان وجهه الطولاني الاسمر ، يظهر من بين هذه الكوفية البيضاء ، كقطعة من البرونز ، تلمع فيها عينان تفيضان

بالحركة والحياة . وكانت حركات صدره تبدو بوضوح من تحت هذا الرداء الرقيق ، وتنم عن حيوية عنيفة وطموح شديد ...

عندما سمع اسمي، بدا على تقاطيع وجهه تحوّل فجائي وأبرقت عيناه بابتسامة عميقة ، ولم تلبث ان ظهرت دواعي هـذا التحول وهذه الابتسامة ، بهذه الكلمات التي بدأها بشيء من التلعثم وأتمها بأداء متزايد الاندفاع :

ـ كلما كنت اقرأ لك واسمع عنك ، كنت أتخيلك شيخاً متقدماً في السن . ولهذا السبب سررت جداً من مشاهدتك هكذا، في سن الكهولة وعهد النشاط . وهذا من حسن حظ الامة العربية : سيكون امامك مجال واسع لتخدمها في حياتها الجديدة ، كما كنت تخدم الدولة العثمانية في عاصمتها ..

ان العلاقة التي بدأت بيني وبينه تلك الليلة على هـذا المنوال ، كان مقدراً لها ان تستمر وتتوطد بدون انقطاع ، مدة تزيد على اربعة عشر عاماً بقيتُ بجانبه ، وعملت في معيته حتى أواخر ايام حياته ، فاطلعت على دخائل نفسه في ظروف متنوعة ، وتبينت خصاله بكل تفصيل وبكل تأكيد .

رأيته في أشد ثورات الغضب ، واعمق حالات الرضى ؛ عاشرته في أتعس ايام الخيبة وأسعد سني الفوز ؛ رافقته في أحرج ظروف حياته ، وفي أبهج ايام نجاحه : فكنت بجانبه عندما اخذ يسير ـ يوم ميسلون ـ في طريق المزة ، تحت وابل من قنابل الطيارات الفرنسية ؛ وبقيت بجانبه عندما كان يتردد فيما يجب عمله اولاً في الكسوة ثم في درعا ؛ ورافقته في الباخرة عندما انتقل من بورت

سعيد الى نابولي ، مودعاً حياة حافلة بشتى الاعمال والذكريات ، وملتمساً حياة جديدة تكتنفها انواع الاحتمالات . كما انني كنت بجانبه عندما أخذ يتجول في مختلف انحاء العراق ، بعد انتخابه ملكاً عليه . وبقيت الى جانبه طوال سني كفاحه وعمله هناك . عاشرته معاشرة مستمرة خلال جهوده المضنية في سبيل حل المشاكل الداخلية والخارجية التي كانت تتوالى بدون انقطاع على ملكه الجديد . رأيته في شتى الاحتفالات الرسمية وفي أفخم الفنادق الاوروبية ، وتحت أبسط الصرائف البدوية ، والى جانب أبدى الخيم الصحراوية ، فتمكنت من ملاحظته ملياً في قاعة عرشه ، ومكتب قصره ، وغرفة نومه ، وفراش مرضه ، في مختلف ايام آلامه وافراحه ...

ونظراً الى كل ما لاحظته في هذه الظروف المتنوعة ، خلال تلك السنين الطويلة ، علمت بانه كان يمتاز بخصال ثمينة جداً ، تجعله وجعلته عظيماً بكل معنى الكلمة .

انه كان ذكياً ، حاد الذكاء ، ومرناً خارق المرونة . كان يتمتع بحيوية شديدة ، وفعالية لا تعرف الكلل . وكان نادر المثال في روح المثابرة وفي شيمة التعقيب . وفوق كل ذلك ، كان يحمل في طيات جنبه وطنية حارة عميقة ، تدفعه الى العمل في سبيل الوطن بدون انقطاع ، وتجعله مستعداً لتضحية كل ما هو عزيز عليه ، عند الاقتضاء .

ان اجتماع هذه الاوصاف والمزايا في نفس الملك فيصل ، جعل حياته مثالا رائعاً للتطور الدائم ، والتقدم المستمر ، والارتفاع

السريع ، كان كل يومه أحسن من امسه بدرجات كبيرة ، فأصبح البون بين بداية حياته السياسية ونهايتها شاسعاً جداً . وكان من سوء حظ الأمة العربية ، ان شعلة حياته انطفأت في الوقت الذي كانت شخصيته السياسية وصلت فيه الى اقصى درجات النضوج وأشد حالات التوهّج ... وفي الوقت الذي اصبحت فيه الامة أحوج ما تكون الى خدماته ..

حقاً انه كان ذكياً ، حاد الذكاء ، يتفهم ويتمثل القضايا المتنوعة بسرعة كبيرة ، وينفذ الى دقائق الامور وخفاياها بصورة تثير الاعجاب .

إنه كان مرناً ، خارق المرونة : يتكيف بسرعة كبيرة ، وفق مقتضيات الاحوال والظروف ، من الوجهتين المادية والمعنوية.

فاذا ما رأيته على مائدة اوروبية ، خلته رجلاً عريقاً في الحياة الاريستوقراطية الغربية ، نشأ — منذ نعومة اظفاره — على أدق تقاليد البلاطات الملكية . واذا شاهدته في خيمة بدوية ، خيل اليك انك أمام رجل لم يفارق البادية ، فلم يأخذ بادنى نصيب من متارف المدنية .

ان شخصيته البدوية — ومقدرته العشائرية — تجلت أمامي على اوضح الصور — لأول مرة ، في ظل بيت شعر مكشوف الجوانب ، اقيم بالقرب من محطة السكة الحديدية في درعا : لقد جلس الملك فيصل القرفصاء ، بالرغم من ملابسه العسكرية ، واخذ يحادث الشيوخ المجتمعين حوله بلهجة بدوية صرفة ، باوضاع بدوية بحتة ، كأنه واحد منهم ، ولا يختلف عنهم أبداً : كانت كل كلمة من

الكلمات التي يلفظها ترافق حركة او اشارة من يده ، او رأسه ، او عينه ، او جذعه ، او منها جميعاً . وكانت يده – على وجه الخص – لا تنقطع عن الحركة والاشارة ، بصور شتى ؛ وكانت هذه الحركات والاشارات تزداد اتساعاً وارتساماً بفضل العصا الصغيرة التي كان يمسكها ، ليستعين بها على التعبير عن افكاره خلال الحديث ، تعبيراً مجسماً . فانه كان يوجه العصا تارة الى اليمين وطوراً الى اليسار ، تارة الى الاعلى وطوراً الى الاسفل ، وكان يحركها في بعض الاحيان على الارض ، وطوراً يرميها من يده بوضع خاص ، ثم يعود ويتناولها بوضع آخر ... كل ذلك تمشياً مع سياق الكلام ، ومقتضيات الحديث ، والشيوخُ من حوله يصغون اليه بانتباه عميق ، كأنهم مسحورون باطواره وأحاديثه . وعندما يجيبون على اسئلته ، يبدأون الكلام بقولهم « والله يا بو غازي ... »

ولكني رأيته بعد شهرين من ذلك التاريخ في أحد الفنادق الايطالية الفخمة ، يبدو للناظرين كأمير اوروبي ظريف ، يجذب الانظار بلباقته النادرة وأناقته الممتازة . وقد سمعت الكثيرين من نزلاء الفندق – من رجال ونساء – يتهامسون او يتحادثون عنه باعجاب عميق : «ما أظرفه ! .. ما أنبله ! .. ان آثار النجابة والأصالة تبدو على محياه بكل وضوح .. حقاً ، إنه أمير ممتاز ! ... » إني رأيت كل ذلك رأي العين ، ولذلك لم استغرب عندما قرأت بعد مدة – ما كتبه عنه بوانكاره ، في مجلة العالمين الفرنسية ، بعد انفكاكه من رئاسة الجمهورية ، احتجاجاً على فكرة سفر الملك فيصل الى انكلترة : « نحن نعرف انه يتمتع بشخصية

جذابة ساحرة ، فعسى ان لا يؤثر في اصدقائنا الانكليز هناك ، تأثيراً يؤدي الى تعكير صفو العلاقات القائمة بينهم وبيننا .. »

ان خصال هذه الحياة الغربية العالية ، من ظرافة ولباقة واناقة ، قد اشتدت وتقوت وتكاملت عند الملك فيصل على الدوام ، لكنها لم تجرده عن شخصيته البـــدوية في يوم من الايام . فكانت تلك الشخصية تعود الى الظهور كلما اقتضت ذلك الظروف والاحوال . وقد سمعته يقول مراراً – في سورية والعراق – « أنا لم أطلب العرش للراحة أو الصيت والابهة ، بل طلبته واطلبه للعمل والخدمة فاذا لم أجـد مجالا للخدمة التي أصبو اليها ، لا أتردد أبداً عن ترك العرش والعودة الى البادية » .

*

إني لا أزال اذكر ما حدث في أول مائدة بدوية شاركته فيها . وكان ذلك في « صريفة كبيرة » ، بين احيـاء العمارة في العراق . كانت المائدة بدائية وبدوية بكل معنى الكلمة : على صينية كبيرة القطر ، تل من الارز الكثـير الدهن ، وعليه خرفان سمينة . ولم يكن هناك من آلات الأكل شيء غير الملاعق المعدّة لشرب اللبن . جلس الملك فيصل على الارض ، ببشاشته المعهودة ، وشمر أردانه الى كتفه ، واخذ يتناول الطعام على عادة البدو تماماً : مد يده الى الخروف ، وقطع اللحم باصابعه الطويلة ، وبعد ذلك أخذ يملأ كفه بالأرز ، ثم يعصره عصراً يؤدي الى سيلان الدهن من بين الاصابع ، وطفق يأكل بشهية وبساطة ، كأنه لم يأكل طول حياته عـــلى اسلوب غير هذا الاسلوب . أما انا ، فقد حرت في ما يجب عمله في

هذا الوضع للوهلة الاولى . ثم اخذت استعمل الملعقة مقام السكين اقطع اللحم بطرفها الحاد . واستعنت بما تذكرته عن طريقة طعام اهل الصين : وصرت أدفع بالملعقة مقداراً من الأرز على الخبز المرقق ، ثم أدفع عليه اللحمة المقطوعة . وتوصلت بهذه الصورة الى تناول الطعام دون ان الوّث يدي واصابعي بالدهن أو اللحم ، على الرغم من حرماني من الشركة والسكين .

كان الملك فيصل قريباً مني ، لا يفصل بيني وبينه الا رجل واحد . ولاحظت انه تتبع حركاتي هذه بشيء من الاهتمام . وعندما شاهد الطريقة التي ابتكرتها ، قال لي مبتسما :

– دبرتها !؟..

وانصرفت انا الى الاكل ، مع شيء من الارتياح ، لتغلبي على المشكلة التي جابهتني على هذا المنوال . غير ان ارتياحي هذا لم يدم طويلاً لانني شعرت ، بعد مدة قصيرة ، بقطعة كبيرة من اللحم المدهن تنقض على قفا يدي ، بكل حرارتها وسمانتها ، فتفسد عليّ كل الجهود التي كنت بذلتها ... انه كان قطع هذه اللحمة ، ورماها فجأة على ظهر يدي المشغولة بدفع الأرز على الخبز المرقق ، وانطلق – في الوقت نفسه – يقهقه قهقهة عالية ، ويقول :

– عود نفسك يا شيخ !

*

«عوّد نفسك ، يا شيخ !» هذه العبارة التي القاها عليّ في الظرف الذي ذكرته آنفاً ، إنه كان يعمل بها على الدوام ، ويعوّد نفسه جميع الاعمال الملائمة لجميع الظروف ...

ولم تنحصر آثار هذه المرونة التي كانت تمكنه من التكيف مع مقتضيات الظروف والاحوال ، بالامور المادية وحدها ، بل كانت تشمل الامور المعنوية ايضاً : فانه كان شديد المرونة في سياسته الداخلية والخارجية ، وسريع التكيف مع ما تقتضيه الظروف المتتالية ، كما كان شديد المرونة وسريع التكيف في حياته المادية .

وهذه المرونة الشديدة ، كان يمكن ان تصبح من النقائص التي تضر بالصالح العام وتعيق التقدم والنجاح ... لو لم تكن مشفوعة بخصلتين مهمتين : شدة الحيوية ، وحرارة الوطنية .

ان سياسة « خذ وطالب » التي وضعها لنفسه ولدولته — والتي أوصلت العراق الى أوج رفعته — كان يمكن ان تصبح سياسة مضرة ، لو لم تحمل نفس فيصل الكبيرة طاقة لا تنضب من روح النشاط والمثابرة ، ولو لم تؤجج في اعماق صدره سعيراً من الوطنية الخالصة ...

ان هذه السياسة المرنة ، كان يمكن ان تؤدي الى « الاكتفاء بما تمّ أخذه » والى « التقاعس عن طلب المزيد منه » ... لو لم تحركه على الدوام ... هذه الوطنية الطامحة التي لا تكتفي بالفوز الذي وصل الى اليد ، بل تبقى تطالب بما وراء ذلك وتصبو الى الأتمّ فالأتمّ على الدوام ... هذه الوطنية الجامحة لا تتخدر أبداً بشعور الفوز النسبي الذي احرزته ، بل تواصل العمل في سبيل الوصول الى الغاية القصوى التي تصبو اليها ، وتعتبر كل خطوة من خطوات الفوز مقدمة للخطوات التالية ومقفزاً للوثوب الى الامام ...

لقد رضخ فيصل الاول مراراً الى الضرورات الخارجية قارة

والى الضرورات الداخلية طوراً ؛ ولكن رضوخه هذا لم يكن في يوم من الايام من نوع القنوط والاستسلام ، بل كان من قبيل الوقفة التي تساعد على تكثيف القوى والاستجمام ، استعداداً للكفاح الجديد ، والجهود الجديدة ، وفق خطط محكمة تمام الأحكام ...

إنه ما كان يقنط من مرارة الخيبة ، ولا كان يسكر من حلاوة الفوز . وما كان ينفك عن الايمان بالفوز ، حتى في أشد ظروف الخيبة ؛ وما كان ينقطع عن النزوع الى الفوز الاعظم ، حتى خلال أبهج ساعات النجاح .

كان مؤمناً بمستقبل الامة العربية ، ومتحسساً نحوها بحب خالص عميق .

واستطيع أن اقول : إن حجر الزاوية في بناء شخصية فيصل الفذة ، كان هذه الوطنية العميقة . فان جميع خصاله العقلية والخلقية — من ذكائه الحاد الى حيويته الشديدة — ما كانت لتستطيع ان تحقق ما حققته من النهوض والتقدم بالعراق ، لو لم تكن كلها راضخة لقيادة هذه الوطنية الحارة ، ومدفوعة بقوة تلك الوطنية على الدوام ...

وطنية الملك فيصل ... كم وكم لي من الدلائل والشواهد على عمقها وقوتها !...

انا لا أرى مجالاً لاستعراض تلك الدلائل والشواهد في هذا المقام . غير اني ارى من الضروري ان اسجل هنا واحدة منها ، لأظهر عمق تلك الوطنية وشدتها ، بكل وضوح وجلاء :

طلبني يوماً وقت العصر ، فذهبت لفوري الى البلاط . وعندما وصلت الى باب القصر ، علمت بانه يتجول في الحديقة ، فتوجهت الى جهة الشط ، لملاقاته هناك . وبعدما تقدمت قليلا في ذلك الاتجاه ، رأيته من بعد ، متجولا مع جماعة من حاشيته على السدة . وعندما لمحني ، خلال تلفتاته ، غيّر اتجاهه بغتة ، واخذ يتقدم نحوي ونحو القصر ، بخطى سريعة . وعندما التقينا في منتصف طريق السدة ، صافحني ، ثم وجه إليّ بعض الاسئلة السريعة : « كيف حالك ؟ كيف خلدون ؟ امه ؟ اخته ؟ » وبعد ذلك واصل السير نحو القصر بخطى واسعة وسريعة ، دون ان يقول شيئاً ...

وظهر لي بوضوح عندئذ انه كان مشغول البال بقضية مهمة ، يريد ان يحدثني عنها ، ولكنه لم يشأ ان يذكر شيئاً منها بحضور احد من رجال حاشيته . ولذلك بقي صامتاً الى ان وصلنا القصر ، ودخلنا القاعة الكبيرة ، واختلينا فيها .

جلس على كرسي في أقصى زاوية القاعة ، واشار اليّ بالجلوس الى الكرسي الذي بجانبه ، ثم خفض بصره نحو منضدة السجائر التي تقع بيننا ، ووقف في هذا الوضع مدة من الزمن ، وقفة من يريد ان يجمع شتات افكاره ، وينظم عناصر حديثه ... ثم رفع رأسه بغتة ، وهزه هزاً خفيفاً ، بوضع من اتخذ قراراً خطيراً ، واخذ يتكلم :

بدأ الحديث بلفظ كلمة « غازي » ، ثم كرّر هذه الكلمة — حسب عادته عندما يتكلم عن شيء خطير — « اقول : غازي » .

ولم يكد يلفظ العبارات الاولى من حديثه ، حتى تبينت

كل المسألة ، بكل ما فيها من خطورة وتعقيد :

غازي ، ابنه وولي عهده ، غازي ... انه كان قد تركه هناك في الحجاز منذ بداية الثورة ، تحت رعاية جده الملك حسين. ولكنه بعد ان استقرت الامور في العراق – رأى من الضروري ان يجلبه الى بغداد، ليشرف على تربيته وتعليمه بنفسه ، وينشئه التنشئة التي يتطلبها مستقبله . ويظهر ان البعض ممن كانوا ساهموا في تعليم الملك فيصل نفسه ، أرادوا ان يتولوا تعليم غازي ، ولكنهم لاحظوا بانه لا يفهم ما يلقى عليه من الدروس . وما نقلوه الى الملك فيصل في هذا الصدد ولد في نفسه خوفاً من أن يكون في ذكاء غازي شيء من النقص ، وحمله على التفكير في الامر بصورة جدية .

– تعرف يا ساطع ، باني احب اسرتي ، واحب ابني غازي ، واحب ان اؤسس اسرة مالكة ... ولكني احب امتي اكثر من اسرتي واكثر من غازي ... فاذا كان الامر حقيقة كذلك ، وإذا كان غازي لا يتصف بالذكاء اللازم لولي عهد ولملك ، اقول : إذا كان غازي لا يخلو من غباوة ، فانا سوف لا اتردد في العمل بما يحتمه عليّ الواجب الوطني . سأجمع مجلس الامة ، وسأقول : اني اجعل الامة في حل من ولاية عهد ابني ، واترك لها الحرية التامة في تقرير ما يجب عمله في هذا الشأن ...

قال ذلك ، بصوت مختنق ، ولكنه مملوء باداء العزم والحزم . ثم كرّر :

– احب ابني ، ولكني احب امتي أكثر من ابني .. فعليّ ان اقوم بواجبي نحوها ، قبل كل شيء ...

و قد أصغيت الى حديثه هذا ، بسكون تام وبتأثر عميق .

أذكر أنـــني كثيراً ما جوبهت باستشارات من بعض الآباء والامهات عن بعض المشاكل والمسائل المتعلقة باولادهم خـــلال حياتي التربيوية الطويلة . غير اني لا اذكر ان واحدة منها بلغت من الخطورة مبلغ خطورة هذه الاستشارة ..

انني لم اكن قد رأيت الامير غازي – حتى ذلك اليوم – الا مرة واحدة . فقلت للملك فيصل :

– مع الاسف انني لم اخالطه الى الآن مخالطـــة تمكنني من الحكم في الامر حكماً قاطعاً . ومع هـــذا استطيع ان أقول : انني لم ألاحظ على سحنته وشكل جمجمته ، ما يدل عـلى نقص عقليّ فيـــه .

وبعد هذه المقدمة ، سردتُ عليه بعض المعلومات العامة :

ان علماء النفس والتربية يقسمون « التأخر » الذي يلاحظ عند الاطفال الى نوعين اساسيين: النوع الاول هو التأخر الذي ينتج عن التأخر في الدرس والتعلم. والنوع الثاني ، هو التأخر الذي ينجم عن نقص طبيعي في القابليات الفكرية . ان النوع الاول مما يمكن تلافيه تلافياً تاماً ، بتدابير تربيوية وتعليمية خاصة ، بعكس النوع الثاني الذي لا تمكن معالجته معالجة تامة . يلوح لي ان حالة الامير غازي ، تنطبق عـــلى النوع الاول : انه تأخر في الدرس – المدرسي منه والطبيعي – بالنسبة الى عمره . ونتج عن ذلك نقص في قـــواه الفكرية الراهنة . وهذا مما يمكن تلافيه بسهولة . ومع ذلك ، أنا أقول هذا ، دون ان اؤكده . فاسمحوا لي ان اواجهه ، وافحصه

عدة مرات ، قبل ان اعطي حكما قاطعاً في الامر ..

ان ايضاحاتي هذه بسطت على قلبه شيئاً من الطمأنينة وأزالت عن وجهه علائم التوتر والانقباض . ومع هذا ، بعد الاصغاء الى ما قلته اصغاء المرتاح المتفائل ، عاد الى تخوّفه فقال :

– ولكنني اريد ان اتأكد من الامر . ادرُس المسألة جيداً ، وقل لي رأيك النهائي . لا تفكر بي ، لا تفكر بغازي . فكّر بالامة ، فكر بالوطن ...

قال ذلك وانتصب في كرسيه ، وانتهزت انا فرصة هذا الانتصاب ، للنهوض والانصراف .

وعندما قام يصافحني مودعاً ، قال لي بلهجة ملحة ، كلها جد وحزم :

– أعرف ، يا ساطع ، انك رجل صريح تقول كل ما تعتقد به بدون مواربة ... غير اني أرجوك ان لا تخرج عن دينك هذا في هذه المسألة : لا تفكر بي ، لا تفكر بغازي ، فكر بالامة ، فكر بالوطن ...

ودّعته بعد ان طمأنته على ذلك . وقبل ان اخرج من الباب ، سمعته يكرر مرة اخرى :

– قلت لك يا ساطع ، لا تفكر بي ، لا تفكر بغازي ، فكر بالامة ، فكر بالوطن ..

*

ليس هنا مجال للبحث عما تم بعد ذلك . غير اني أرى من الواجب عليّ ان اصرح بانني عدت اليه بعد عدة ايام اطمئنه على صدق تخميني

الاول ، واوكد له ان عدم فهم غازي لما القي عليه من دروس ، لم يتأتّ من نقص في قابلياته الفكرية ، بل نتـــج عن تأخره في الدرس والمخالطة تأخراً شاذاً ، بحكم حياته السابقة ، وان تلافي ذلك يتطلب السير على خطة محكمة ، بوسائط خاصة ، بواسطـــة معلمين ومربين مجدين ويقظين ..

إني لا ازال اذكر الفرح الذي تملكه عندما سمع مني هـــذا الحكم ، والحماس الذي اظهره في تطبيق الخطة التي اقترحتها لتعليم غازي وتربيته ..

غير اني لا ازال اذكر – في الوقت نفسه – رنين صوته الذي كان يكرر على مسامعي : « لا تفكر بي ، لا تفكر بغازي، فكر بالامة ، فكر بالوطن .. »

وشاءت الظروف ان اتولى ادارة الآثار القديمة ، بعـد ارتحال فيصل الكبير ، وان اتوصل الى إظهار واحياء بقايا القصر العباسي في قلعة بغداد ، من بين المباني المضافة اليه والاقـــذار والانقاض المتراكمة فيه ، واعادة بعض قاعاتها الى ما كانت عليه قبـــلاً . وفكرت عندئذ ، بتخصيص قاعات ذلك القصر القـديم ، لعرض مخلفات هذا الملك العظيم .

وعندما كنت افكر هناك ، في كيفية توزيع وعرض الاشياء والصور ، على جدران هذه القاعات وخزاناتها عرضاً يمثل حيـــاته ومآثره احسن تمثيل ، كم وكم مرة قلت في نفسي :

ولكن كم وكم له من المآثر التي لا يمكن ان تظهر على الصور ، ولا ان تتمثل باشياء !..

لو لم يُخرج الفرنسيون الملك فيصل من سورية ...

•

« لو لم يخرج الفرنسيون الملك فيصل من سورية .. » هذه عبارة ارتسمت بطبيعة الحال في اذهان الكثيرين ، منذ وقائع سنة العشرين ، وحملتهم على التساؤل : « ماذا كان يحدث عندئذ في سورية بوجه خاص ، وفي سائر البلاد العربية بوجه عام ؟ »

ان ما حدث في العراق من التقدم السريع في جميع ميادين الحياة العامة – بفضل جهود الملك فيصل – يحمل الكثيرين على الرد على هذا السؤال بجواب مقرون بالتأسف الشديد والتلهف العميق .. لانهم يذهبون الى ان سورية كانت تنال على يده تقدماً كبيراً يفوق التقدم الذي ناله العراق ، كما ان التقدم الذي يحدث في سورية على يده بهذه الصورة ، كان من شأنه أن يؤثر في اوضاع سائر البلاد العربية تأثيراً اعمق واشمل من التأثير الذي احدثه في العراق ..

وأما أنا ، فارى غير هذا الرأي ، لان ما اعلمه عن سجايا الملك فيصل ونزعاته الاصيلة من ناحية ، وعن عقلية الانكليز والفرنسيين وسياستهم من ناحية ثانية ، وعن اوضاع العراق وسورية في تلك الحقبة من التاريخ ، ونزعات اهليهما من ناحية ثالثة .. يحملني على

القول بان الملك فيصل ، لو بقي في سورية بعد وقائع ميسلون لما استطاع ان يقوم بخدمات تماثل الخدمات التي قام بها في العراق.

اولاً : لان عقلية الانكليز المنتدبين على العراق تختلف عن عقلية الفرنسيين المنتدبين على سورية اختلافاً كلياً ، كما ان السياسة التي يسير عليها الانكليز في حكم الشعوب بوجه عام تختلف عن السياسة التي يتبعها الفرنسيون في هذا المضمار اختلافاً جوهرياً .

فان الانكليز قوم عمليون. انهم يستطيعون ان يعينوا منافعهم بصورة واضحة ويحددوا مطالب بحدود قاطعة . كما انهم يسعون الى معالجة هذه المنافع والمطاليب بصورة مجردة عن الهوى والعاطفة. ان تجاربهم السابقة في حكم الشعوب والسيطرة على البلاد لا سيما في شمال امريكا وجنوب افريقيا علمتهم بوضوح وجلاء مضار التشدد والتصلب من جهة ، وفوائد التساهل والتفاهم من جهة اخرى ، فاكسبتهم بذلك مرونة سياسية كبيرة في تنظيم علاقاتهم بالبلاد التي تقع ضمن نطاق مصالحهم الخاصة .

انهم قد يخطئون في موازنة المنافع والمغانم التي تنجم عن كل خطة من الخطط التي يضعونها ، ولكنهم لا ينفكون عن اعادة النظر في هذه الموازنة من حين الى حين . كما انهم – اذا افهموا غلطهم – لا يترددون في تغيير خطتهم ، دون ان يتركوا لعواطفهم مجال التأثير في الخطط التي يتبعونها .

ولهذه الاسباب كلها ، فان سياسة التساوم المستمر والتفاهم التدريجي التي تتمثل بدستور « خذ وطالب » الذي وضعه فيصل العظيم كان يمكن ان تنجح مع الانكليز ، وان تأتي بثمرات بالغة

في البلاد التي تقع تحت نفوذهم.

غير ان الفرنسيين – بعكس ذلك تماماً – قوم خياليون واندفاعيون. انهم لا يستطيعون ان يحددوا منافعهم ومطالبهم بحدود واضحة، ولا ان يجردوا سياستهم من تأثير الهوى والعاطفة...

والتجارب التي مرت عليهم في حكم الشعوب والبلاد، لم تكسبهم شيئاً من المرونة في هذا المضمار، لانهم لم يخسروا احدى مستعمراتهم من جراء ثورة اهاليها – كما حدث للانكليز في اميركا الشمالية بعد الحرب الاستقلالية – ولم يضطروا الى تجربة سياسة التفاهم بصورة فعلية – كما حدث للانكليز في افريقيا الجنوبية، بعد الحروب البويرية – ولذلك ظلت سياستهم تستلهم خططها من تجاربهم الجزائرية والمراكشية، وظلوا لا يعرفون معنى للحكم غير « الحكم المباشر » ولا يتصورون لوناً من السيطرة غير « السيطرة المطلقة ».

والنجاح الذي احرزه الفرنسيون في ادارة القطر الجزائري ادارة مباشرة – بعد اخماد الثورة التي جابهتهم في باديء الامر – شجعهم على المضي في هذه السياسة التقليدية، وجعلهم يتمادون في اعتبار سياسة التساهل والتفاهم منافية للشرف العسكري وماسة بالكرامة القومية.

ان هذه الاوصاف التي تتصف بها السياسة الفرنسية في حكم الشعوب والبلدان بوجه عام كان من الطبيعي ان تتجلى في سياستهم السورية ايضاً، بشدة اعظم وبصورة اتم من كل ذلك، لان الآمال

والاماني التي علقوها على سورية ، كانت قديمة ومعقدة وواسعة جداً ، كما انها كانت ممزوجة بالشيء الكثير من الصوفية ايضاً ، اذ من المعلوم ان اصول هذه الاماني والآمال كانت ترجع الى عهد الحروب الصليبية ودور الامارات اللاتينية ، واما دفة سياسة فرنسة في سورية، فكان يشترك في توجيهها مطالبات الغرف التجارية الفرنسية وتنظيمات المحافل اليسوعية . وكل ذلك كان يبعدها عن مناحي التساهل والتفاهم بعداً كبيراً ...

ولذلك كله أقول : ان الملك فيصل لو بقي في سورية بعد دخول الفرنسيين ، لما سارت الامور كما سارت في العراق بوجه من الوجوه ، بل لحدث احد الامرين التاليين ، على وجه التأكيد :

اما أن يخضع الملك فيصل الى مشيئة الفرنسيين خضوعاً تاماً ، فيفقد مكانته الشعبية وينزل الى منزلة راجوات الهند او سلاطين المغرب ...

او يختلف مع رجالهم اختلافاً كبيراً يحملهم في آخر الامر على إخراجه من البلاد ، بعد مرور مدة من الزمن .

ان ما اعلمه عن شدة الشعور القومي الذي كان يختلج في جوانح الملك فيصل يحملني على استبعاد الاحتمال الاول ، وعلى القول بحتمية الاحتمال الثاني ويجعلني اجزم - على كل حال - بان الملك فيصل ما كان ليستطيع ان يخدم سورية خدمة ذات بال ، لو بقي فيها بعد دخول الفرنسيين .

*

زد على ذلك أمراً آخر ، جديراً بالاعتبار في هذا المضمار :

ان المرحلة التاريخية التي كانت سورية قد اجتازتها حتى يوم ميسلون ، تختلف اختلافاً جوهرياً عن المرحلة التاريخية التي كان العراق قد اجتازها حتى ذلك اليوم ، كما ان الحالة النفسية التي كانت سائدة في سورية عند خروج الملك فيصل منها تختلف اختلافاً كلياً عن الحالة النفسية التي كانت سائدة في العراق ، عند وصول الملك فيصل اليه .

فان العراق خرج من الحكم العثماني ، من جراء الحروب التي حملت اعباءها الجيوش البريطانية والهندية وحدها ، والادارة التي تأسست في مختلف انحاء العراق – عقب الحرب العالمية – كانت ادارة احتلالية أجنبية بحتة ، لا اثر للحكم الوطني فيها . والعراق كان قد اصبح آنذاك تابعاً لبريطانيا – وبتعبير اصح : تابعاً لحكومة الهند التابعة لبريطانيا – تابعية صريحة ، بصورة فعلية . فكل ما كان يُعمل هناك بعد ذلك لنقل اعمال الادارة ومسؤولية شؤون البلاد من الايدي الاحتلالية الى الايدي الوطنية – ولو بصورة تدريجية – كان خليقاً بالاعتبار « خطوة الى الامام » في سبيل الاستقلال المنشود . وكان ينزل منزلة « نيل حق فعلي » بالنسبة الى الاحوال الراهنة .

ولهذا السبب ، فان سياسة « خذ وطالب » التي سار عليها الملك فيصل في العراق ، كانت سياسة حكيمة بالنسبة الى الاحوال القائمة فيه عند ذاك . فقد سار العراق – بفضل هذه السياسة – نحو الاستقلال الفعلي التام ، شيئاً فشيئاً ، الى ان دخل في حظيرة

عصبة الامم ...

واما في سورية ، فان الامور كانت قد سارت على عكس ذلك تماماً . فان البلاد السورية تخلصت من الحكم العثماني على يد جيش الثورة العربية - ولو بمساعدة الجيش البريطاني - فالادارة التي تأسست هناك كانت ادارة وطنية بحتة منذ البداية . وهذه الادارة تحولت بسرعة الى حكومة وطنية منظمة ، تعمل تحت مراقبة مؤتمر يمثل الامة . والبلاد اعلنت استقلالها بصورة رسمية ومارست هذا الاستقلال بصورة فعلية . فكل معاهدة يمكن عقدها مع فرنسة بعد ذلك كان لا بد من ان تأخذ شكل « تنازل عن بعض الحقوق المكتسبة » ، ولا بد من ان تصبح بمثابة « رجوع الى الوراء » بالنسبة الى الحالة الراهنة .

فما كان من الممكن ان يقال في سورية - والحالة هذه - « خذ وطالب » ، كما قيل في العراق ، لأن سورية كانت قفزت الى ذروة الاستقلال منذ الخطة الاولى . وكانت اصبحت امام مطالب الفرنسيين لا عروضهم ...

فنستطيع ان نقول بكل تأكيد : ان كل معاهدة من المعاهدات التي اعتبرت في العراق من نوع « التقدم الى الامام في سبيل الاستقلال » كانت تعتبر في سورية - في ذلك التاريخ - بمثابة « الانحدار نحو الاستسلام والعبودية » .

فما كان يمكن للملك فيصل ان يقوم في سورية بخدمة مماثلة للخدمات العظيمة التي قام بها في العراق ، ومن هذه الوجهة ايضا . لهذه الملاحظات كلها اقول : ان اخراج الملك فيصل من سورية غداة يوم

ميسلون، كان من الامور التي نفعته ونفعت الامة العربية منفعة كبيرة .

وأرى انه يجب ان يُحمد الجنرال غورو على فعلته هذه ، لانني اعتقد أنه خدم بها القضية العربية – من حيث لا يقصد ولا يدري – اذ أفسح امام الملك فيصل مجالا للعمل في بيئة – وتحت ظروف – اكثر مساعدة للعمل المثمر. فاكسب العراق مؤسساً داهية، واكسب الامة العربية بطلاً مغواراً ، مثل فيصل العظيم *..

---

*وقعت في المجلد العاشر من « الموسوعة الفرنسية » الجديدة على فقرة تتعلق بالملك فيصل، كتبها « لويس لوفور » Louis Le Fur الاستاذ بكلية الحقوق في باريس.

وقد تولى الاستاذ المشار اليه كتابة فصل « الدولة والامة » في الموسوعة المذكورة ؛ وعند الكلام عن « تأثير الدولة في توحيد وتكوين الامة » ذكر العراق والملك فيصل قائلاً :

« ان عملية توحيد الامة بواسطة الدولة ، تجري أمام أعيننا في هذه البوتقة التي تسمى « العراق » : ملك ذو حزم وذكاء ، استطاع أن يحقق ذلك – بعض التحقيق – خلال بضع سنوات .

« وهذه الواقعة من الأمثلة التي يتجلى بها الى العيان ، كيف ان « مجرى الحوادث » قد يتغير من جراء « تصادف » يتعلق بطول أو قصر عهد ملك من الملوك : فلو طال العهد بالملك فيصل ، لكان من الممكن ان يستفيد من « فترة تعب أو ضعف » قد تعتري فرنسة أو بريطانيا ، فينجح في خلق دولة عربية كبيرة ، تضم العراق ، وفلسطين وسورية ولبنان » ..

Encyclopédie Française - tome x -

لقد كتب لوفور هذه الكلمة سنة ١٩٣٥ ، خلال هذا البحث العلمي البحت.

*

وعندما قرأت هذه الكلمة في هذه الموسوعة الكبيرة ، تذكرت حالاً – عن طريق التضاد – ما كان قد كتبه رئيس جمهورية فرنسة السابق « بوانكاره » ، قبل ذلك بخمسة عشر عاماً : في مقالة نشرها في « مجلة العالمين » ، عقب يوم ميسلون ، قاصداً الملك فيصل : « بالون منفوخ ، انفش وزال » !

مع ان بوانكارة كان من اكبر رجال السياسة في فرنسة ، وكان ممن يمتازون بسعة الثقافة ، ورجاحة العقل ، وقوة البيان ! ..

حول انهيار فرنسة

•

- ١ -

ان أهم الحوادث التي حدثت منذ نشوب الحرب الحالية ، هي بلا شك « انهيار فرنسة »* ..

في الواقع ، ان عدة دول اخرى سبقت فرنسة ، في وادي الانهيار خلال هذه المدة ، غير ان بعضها كان من الدول الحديثة ، وبعضها كان من الدول الصغيرة، فاندحارها لم يؤثر في سير الحرب تأثيراً عميقاً ...

اما فرنسة فقد كانت « العماد البري » للقوى المخالفة لالمانيا ، وجيشها يعتبر أبسل جيش على الارض ، فكان من الطبيعي ان يؤثر اندحارها تأثيراً كبيراً في مجرى الحرب، وان يولد انعكاسات شديدة في الرأي العام ، في جميع انحاء العالم ..

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فان الدول التي اندحرت وانهارت خلال هذه الحرب ، قبل فرنسة ، لم تكن ذات علاقات هامة بالبلاد العربية ، في حين ان فرنسة كانت ، منذ مدة طويلة ،

* محاضرة القيت في نادي المثنى ببغداد ، سنة ١٩٤١

أشد الدول علاقة بالعالم العربي من الوجهتين السياسية والثقافية . فكان من الطبيعي ان تكتسب انعكاسات هذا الانهيار – في الرأي العام العربي – شدة خاصة ، تتناسب مع شدة هـــذه العلاقات الثقافية والسياسية ..

ولذلك ، رأينا ان عدداً غير قليل من الكتاب العرب انبروا الى نشر المقالات ونظم الاشعار ، حول هذا الانهيار ..

ان معظم الكتابات التي نشرت في هذا المضمار كانت «عاطفية» بكل معنى الكلمة ، كان اكثرها بمثابة مراث ، تندب حظ فرنسة ، وتظهر أسفاً شديداً ، وحزنا عميقا للكارثة التي حلت بها . ليس هذا فقط ، بل ان بعض اصحاب هذه الكتابات كان يغالي في الرثاء ، حتى لقد انتهى الى درجة البكاء ...

غير ان هذه المراثي قوبلت حالا بمعارضة شديدة ، فقد حمل عليها بعض الكتاب فوراً ، حملات عنيفة – كيف يجوز لكاتب عربي ان يبكي على فرنسة متناسياً ما فعلته هي بالقسم الاعظم من البلاد العربية ؟ ... كيف يجوز لمفكر عربي ، ان يأسف لما حل بفرنسا ، وهو يعلم أنها كانت من اهم العوامل التي انزلت أكبر النكبات بالامة العربية ، ولا سيما بعد الحرب العالمية ؟

وهنا احتدم الجدال بين الفريقين ، وحاول كل فريق ان يعبر عن عواطفه بمقالات حارة ، اودع فيها كل ما اوتي من قوة البلاغة والبيان ..

انني من الذين يعتقـــدون بان الكتابات العاطفية ، تعبر عن نفسية كتابها الشخصية ، وخواجلهم الذاتية ، فلا تتحمل المناقشة

مناقشة علمية ..

غير ان اصحاب المرائي لم يكتفوا بأظهار عواطفهم هذه وتثبيتها، بل أخذوا يدافعون عنهـــا ويدعون اليها ، وحاولوا أن يدعموها ببعض الآراء والنظريات السياسية والاجتماعية ..

فاذا جاز لنا ان نسكت تجاه « العواطف الشخصية » فلا يجوز لنا ان نلتزم هـــذا السكوت تجاه الآراء والنظريات التي صارت تنشر لتبرير تلك العواطف ..

لقد قال بعضهم « يجب علينا ان نميز بين فرنسة الادبية المتمدنة وفرنسة السياسية المستعمرة » ..

وقال آخرون « يجب علينا ان نفرق بين عمل الساسة وعمل الامـة كلها ، فلا يجوز لنـا ان نعتبر الشعب الفرنسي مسؤولاً عن اعمال حكامه » ..

فلننعم النظر في الآراء التي تتضمنها مثل هذه الاقوال، ولنفكر جيداً : هل يمكن التمييز بين فرنسة الادبيـــة المتمدنة وفرنسة السياسية المستعمرة تمييزاً حقيقياً ؟

انني لا اعتقد بذلك ابداً .. لان الادب الفرنسي نفسه لم يلتزم الحياد تجاه السياسة الفرنسية بوجه عام، وحيال السياسة الاستعمارية بوجه خاص .

بل بعكس ذلك ، انبرى لخدمة تلك السياسة ، بكل الوسائل الممكنة . وقد كتب الادباء عدداً لا يحصى من المقالات والخطب والاشعار ، والقصص والروايات ، التي تمجّـد الاستعمار ، وتزينه الى النفوس ، وتحثّ على الاستعمار وتحببه الى القلوب ..

ان دلائل ذلك تظهر للعيان من خلال جلسات الاكاديمية الفرنسية أيضاً ، لان هذه الندوة الادبية العليا قد حرصت كل الحرص على ان تختار بعض اعضائها من بين رجال السياسة والجيش، كما اختارتهم احيانا من صناديد الاستعمار ، وهؤلاء لم يتجردوا من نزعاتهم السياسية والاستعمارية، عند دخولهم قاعة اجتماع تلك الندوة حتى انهم لم يترددوا أحيانا في اتخاذ تلك القاعة منبراً لأسماع آرائهم الاستعمارية في خطب ادبية رائعة ...

ولعل أقرب وأوضح الأدلة على ذلك، كان انتخاب الماريشال (ليوتي) لعضوية الاكاديمية المذكورة . ومن المعلوم ان هذا الرجل يعتبر من اكبر رجال الاستعمار ،فقد لقبه الفرنسيون بلقب « الافريقي » – تقليداً لما كان قد فعله الرومان في القرون الاولى عندما خلعوا مثل هذا اللقب على « اسجيبيون » بعد تمكنه من تدمير قرطاجنة ...

اجل ان الاكاديمية الفرنسية انتخبت الماريشال «ليوتي» لعضويتها، أفتدرون ماذا كان موضوع « خطبة القبول » التي دشنت حياته الاكاديمية – وفقاً لتقاليد الندوة الادبية المذكورة ؟ ان موضوع الخطبة كان « الاستعمار » ... اقرأوا الخطبة المذكورة تجدوا أنها قطعة أدبية رائعة ، في مدح الاستعمار وتمجيده.. انها تشرح فوائد الاستعمار المادية والمعنوية ، باسلوب حار بليغ ، وتدعو الى « الايمان » بضرورته لحياة فرنسة .

ولكن كيف ذلك؟ لان الاستعمار مصدر هام للقوة والثروة، ومنبع لا ينضب للجيش ، وساحة تدريب وتكوين للقواد ..

ولان الامم المحرومة من المستعمرات ، إنما يكتب عليها الركود والجمود الروحي ...

أعتقد أن هذه الخطبة ، من ابرز الامثلة والادلة على تداخل الادب والاستعمار وتشابكهما ، فلا يجوز لنا ان نقول - والحالة هذه - بوجوب التمييز بين « فرنسة الادبية المتمدنة وفرنسة السياسية الاستعمارية » ، بوجه من الوجوه .

واما اذا قيل لي : ان القصد من التمييز المبحوث عنه ، هو « تقدير الادب الفرنسي » في حد ذاته ، « بقطع النظر عن السياسة الفرنسية والاستعمار الفرنسي »... اذا قيل لي ذلك ، فانا اسلم بصحة هذا الرأي ، غير انني اقول بلا تردد : اذا كان الامر كذلك فلا يبقى داعٍ او مبرر للرثاء ، لان الادب الفرنسي ظل خارجاً عن حدود النكبات .. فان النكبة التي نحن بصددها انما حلت بالدولة الفرنسية وبالجيش الفرنسي ، لا بالادب الفرنسي .. لأن انهيار الجيش لا يستوجب انهيار الادب ، والاندحار في ميادين الحرب والسياسة لا يستلزم الاندحار في ميادين الادب والثقافة ...

انني استطيع ان اخطو خطوة اخرى في هذا السبيل فأقول : إن مثل هذه النكبات قد لا تخلو من فائدة للأدب ، لانها قد تكوّن منبتاً خصباً للانتاج الادبي ، فان الآلام والاتراح تكون - بوجه عام - افعل من الافراح في اثارة العواطف ، وتوليد الادب الرائع ...

وعلى كل حال ، ان نظرية التمييز بين فرنسة الادبية وفرنسة الاستعمارية لا تستند على أساس قويم ، من هذه الوجهة ايضاً .

وأما القول بوجوب التفريق بين الشعب والحكام ، وعدم

اعتبار الشعب مسؤولاً عن اعمال الحكام .. فقول غريب جداً ، ولا سيما بالنسبة الى فرنسة ، التي تفخر وتباهي بالديمقراطية والجمهورية ، والادارة الشعبية ...

انا لا أنكر أن الحكام قد يستطيعون في بعض الاحوال أن يجروا شعبهم الى الاتجاه الذي يريدونه ، غير انني اعتقد بان ذلك الاتجاه لا يمكن ان يستمر طويلاً ، اذا لم يأت موافقاً لنزعات الشعب ، واذا لم يجد هوىً في امياله النفسيّة ..

ومن المعلوم ان « الاستعمار » لم يكن من الحادثات العارضة في تاريخ فرنسة .. بل ان تاريخ الاستعمار هنالك طويل جداً . حتى ان بدء الاستعمار الفرنسي للبلاد العربية نفسها يعود الى اكثر من قرن . فان فرنسة بدأت حملتها على الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وقد مضى على ذلك التاريخ قرن كامل مع عقد من السنين.. ولقد غيرت فرنسة « نظام حكمها » — خلال هذه المدة — اربع مرات ، بل خمس مرات . انتقلت من الملكية الى الجمهورية فالامبراطورية ، ثم عادت الى الجمهورية ، والآن اخذت تجرب شكلا جديداً من نظام الحكم .. ومع هذا ، فانها لم تنحرف عن سلوكها الاستعماري طوال هذه المدة ، وخلال هذه النظم المختلفة . لقد أتمت استعمارها للجزائر بين شتى الانقلابات السياسية ، واستولت على تونس سنة ١٨٨٢ ، وبسطت حمايتها على مراكش سنة ١٩١١ ، واستولت على سورية واتمت استعمارها للمغرب الاقصى بعد الحرب العالمية .. وقد توالت خلال هذه المدة الطويلة عدة اجيال ، ونشأ وترعرع في غضونها عشرات الاحزاب ، وتولى الامر فيها عشرات وعشرات

من الحكومات المتضاربة النزعات ... ومع كل هذا ، لقد ظل « العمل الاستعماري» هو هو ، دون أن يتوقف او يتغير من جراء تبدل نظم الحكم ، او تعاقب الحكومات .. وتوالي الاجيال .. فلا يجوز لنا إذن أن نسلم بان «الاستعمار الفرنسي» من اعمال حكام فرنسة ، وبان الشعب الفرنسي يجب ان لا يُعتبر مسؤولا عنه ...

- ٢ -

هذا ، ومما يسترعي النظر ، ان معظم ما كتب في رثاء فرنسة وفي الدفاع عن ذلك الرثاء - في اللغة العربية - يُظهر آثار افتتان غريب بها - ومغالاة شديدة في اعتبارها أرقى شعوب الارض ، على الاطلاق ...

فقد قال احد الكتاب : « ان المساواة في العدل الاجتماعي لم تكد تتحقق في امة من الامم في كل ادوار التاريخ الا في فرنسة » ... كما ادعى كاتب آخر أنه « لم يثر ثائر على الاستعمار ، في مشرق او مغرب الا وفي روحه جذوة من النار التي اوقدتها باريس للغضب على استعباد الشعوب » .

وقال احدهم : « لا اعرف فرداً قد ربي فيه الوازع الشخصي بمثل ما ربي في الرجل الفرنسي » .

وقد صاح كاتب قائلا : « ان قوة الالمان فيض من قوتك يا باريس !» كما خلع كاتب اخر على فرنسة سلسلة نعوت خارقة مثل « مبعث النور والحرية ومهد الاختراعات » .

ان معظم هذه الدعاوى تخالف الحقائق الراهنة مخالفة صريحة ،

كما ان ما تبقى منها ينطوي على مغالاة صارخة ..

فان التاريخ يذكر لنا عشرات الثورات التي قامت قبل ثورة باريس المعلومة .. والفرنسيون انفسهم يعترفون بانهم تأخروا كثيراً في تحقيق المساواة في العدل الاجتماعي ، كما ان معظم مفكريهم يشكون بمرارة ضعف الوازع الشخصي في نفوس مواطنيهم ، ويحسدون بصراحة بعض الامم من جراء الوازع الشخصي المبحوث عنه ...

واما نعت فرنسة بـ « مبعث النور ومهد الاختراعات» واعتبار الفرنسيين ارقى شعوب الارض على الاطلاق .. فدعوى إن كان يمكن الدفاع عنها في دور من ادوار التاريخ ، فقد أصبحت من القضايا التي لا يمكن التسليم بها في الدور الذي نعيش فيه الآن ...

لقد كان الفيلسوف الانكليزي الشهير « هربرت سبنسر » قد فنّد الاسطورة القائلة « بتفوق الفرنسيين » على جميع شعوب الارض في « المدخل » الذي كتبه لعلم الاجتماع قبل نحو سبعة عقود من السنين ، وانتقد انتقاداً لاذعاً ، المبالغات المفرطة التي كانت تلقب فرنسة بلقب« محررة الامم » والتي كانت تدعي بان اندراس باريس يعني انطفاء مشعل المدنية .

انا لا اشك في ان مثل هذه المبالغات التي استثارت انتقادات الفيلسوف المشار اليه عندئذ ، قد أصبحت أشد بعداً عن الحقيقة الان ، واجدر بالانتقاد الشديد في هذا الزمان .. ولست انكر ان فرنسة كانت أرقى بلاد العالم في دور من ادوار التاريخ ، هذا الدور هو العهد الذي يمتد بين اواسط القرن السابع عشر واواخر

الثامن عشر . واعرف ان البعض من المفكرين الذين استعرضوا تاريخ اوروبة استعراضاً فلسفياً ولاحظوا تتابع دور الاقطاع ودور الانبعاث ، قد سموا الدور الذي نحن بصدده باسم « الدور الفرنسي » .. غير انني اعرف ايضاً ان ذلك الدور قد مضى ، وانطمس في اغوار التاريخ ، منذ مدة طويلة لأن حالة اوروبا وحالة العالم تبدلت تبدلا هائلا خلال القرن التاسع عشر ، فلم تستطع فرنسة ان تحتفظ بمنزلتها السابقة بين هذه التبدلات والتقلبات العالمية الهائلة .

انا لا اود ان اقول ان فرنسة تأخرت منذ ذلك الحين ، إنما اود ان اقول : ان أمماً ودولاً أخرى قامت ، ونهضت وتقدمت بسرعة هائلة .. منذ ذلك العهد ، انها اخذت تتسابق مع فرنسة تسابقاً عنيفاً في جميع ميادين التقدم والرقي .. وقد لحقتها في معظم الميادين ، بل سبقتها في بعض الميادين .. لقد خرجت الحضارة العصرية ، من سيادة فرنسة المعنوية ، منذ مدة غير قصيرة ، ففقدت فرنسا بذلك مكانتها السابقة ، بصورة قطعية ..

مع هذا فانها لا تزال تتمسك بالشهرة التي كانت قد اكتسبتها سابقاً ، على الرغم من حرمانها من التفوق الذي سبق لها ان احرزته في هذا المضمار ..

إنني أشبه منزلة فرنسة وشهرتها المبحوث عنها بمكانة « الوجوه والاعيان » الذين يتمتعون في بعض المجتمعات بشهرة المكانة التي امتازوا بها قبلا ، دون ان يعترفوا بسمو المكانة التي احرزها غيرهم بكل جدارة واستحقاق ...

وكما ان بعض الناس يتأثرون – عادة – بالشهرة السابقة دون ان يلتفتوا الى « الحالة اللاحقة » .. يظهر ان بعض كتابنا ظلوا تحت تأثير شهرة فرنسة السابقة دون ان يُنزلوا هذه الشهرة على حكم الاحوال الحالية ويزنوها بالموازين الجديدة .

٣

ولنترك مسائل المدح والأطراء والرثاء جانباً ، ولنعد الى أصل القضية ونتساءل : « ما هي أسباب انهيار فرنسة ، هذا الانهيار السريع ، الذي يكاد يكون فجائياً ؟ ... »

إن أبسط واسهل الاجوبة التي تخطر على البال رداً على هذا السؤال هو ان فرنسة لم تكن مستعدة للحرب .

وفي الواقع ان هذا التعليل قد سيطر على الاذهان والاقلام سيطرةً غريبة ، فان معظم الذين كتبوا ، وعالجوا هذا الموضوع ، عللوا الانهيار « بعدم الاستعداد » . ليس هذا فقط ، بل ان بعضهم جعلوا من « عدم الاستعداد » هذا ، دليلا على حسن الطوية ، ونبل الغاية .

فقد قرأت بين ما قرأته من الكتابات حول هذا الانهيار في المجلات العصرية ، هذا الحكم البتار :

ما غلبوا الا لأن الديمقراطية التي يعتقدونها لا تفكر الا في السلم ولا تتسلح إلا بالعهود والمواثيق والقوانين والشرف ، في حين ان الديكتاتورية التي يعادونها لا تفكر الا في الحرب ، ولا تتسلح الا بالحديد والنار والدعاية والخيانة والكذب .. »

انا لا استطيع ان اسلم بصحة هذا الرأي ، بالرغم من احترامي الشخصي لصاحبه . فلنستعرض الاعمال العسكرية والسياسية التي قامت بها فرنسة منذ انتصارها في الحرب العالمية المنصرمة . انها استولت على مراكش من جهة ، وعلى الشام من جهة اخرى ، وجردت الحملات العسكرية على مختلف النواحي في اوروبة وآسية وافريقية – حاربت الاتراك ، حاربت العرب ، حاربت الروس بعد الهدنة ، اشتركت في إشغال قسم من البلاد الالمانية واقدمت بمفردها على الاستيلاء على قسم آخر منها ، ساعدت بولندا وتشيكوسلوفاكيا في تسلحهما وتنظيمهما العسكري ، وحاكت احابيل الحلف الكبير والحلف الصغير ، واخذت تدير دفة السياسة الاوروبية بصوت مسموع ومكانة مرموقة ... وانفقت مبالغ طائلة في سبيل تشييد « خط ماجينو » على طول الحدود الالمانية . ورصّعت البلاد السورية والمراكشية بعدد كبير من المواقع العسكرية .. فكيف يجوز – والحالة هذه – ان نقول ان فرنسة لم تفكر إلا في السلم ؟ ولم تتسلح إلا بالعهود والمواثيق ؟ العهود والمواثيق...؟فهل احترمتها فرنسة – مثلا – في سياستها السورية ؟ ألم تكن اعمالها هناك – من اولها الى آخرها – سلسلة حركات تتلخص بالقسوة والعنف ، دون ان تتقيد بالمواثيق والمواعيد؟...

فالعامل الاصلي في الانهيار ، لم يكن عدم الاستعداد للحرب .

فعلى من يخامره ادنى شك في هذا الباب ، ان يرجع بذاكرته الى اوائل الحرب الحالية ويتذكر ما كان يسمعه وما كان يقرأه من الآراء والاخبار حول قوة فرنسة العسكرية .

كانا كنا نسمع كل يوم مقارنات طويلة عريضة ، بين خط ماجينو وخط سيغفريد ، مقارنات تنتهي بوجه عام بالمدح والاطراء للأول وبالقدح والازدراء بالثاني . كل يوم كنا نسمع ونقرأ اخباراً شتى كلها تؤكد تفوّق المدفعية الفرنسية على المدفعية الالمانية وتبرهن على رجحان الطيران الفرنسي على الطيران الالماني .

ولا حاجة للبيان ان مصادر هذه الاخبار والدعايات كلها كانت فرنسية ...

وكل شيء يدل على ان فرنسة كانت « تعتقد » بانها مستعدة للحرب أتم الاستعداد ، وبانها ستنتصر بدون ريب . وإلا لما اقدمت على اعلان الحرب ، بل لأوعزت الى بولندا بوجوب التساهل مع المانيا في قضية دانزيغ والممر ، ولانكبّت بعد ذلك على اتمام استعداداتها . غير انها لم تفعل ذلك ، بل بالعكس شجعت بولندا على المقاومة ، وانضمت الى بريطانيا العظمى في توزيع «الضمانات» ذات اليمين وذات اليسار ، الى القريب والبعيد ، ممن يطلبها او لا يطلبها من الدول ... فلا مجال للشك في ان فرنسة كانت مغرورة بقوتها ومخدوعة في امر قوة عدوتها .

ومن المعلوم ان القوة من الامور النسبية ، فالقوي بالنسبة الى شيء ، قد يكون ضعيفاً بالنسبة الى شيء آخر ، والغلط في التقدير في مثل هذه الاحوال ، قد ينتج عن غلط في تقدير القوة نفسها ، او عن غلط في تقدير القوة المقابلة لها ، او عن غلط في كلا الامرين . ان سير الوقائع يدل دلالة قطعية على ان فرنسة اخطأت خطأ فاحشاً في تقدير قوة المانيا ..

فيجدر بنا ان نتساءل اذاً لماذا اخطأت فرنسة كل هذا الخطأ الفاحش في تقدير قوة عدوتها ؟

انني اعزو سبب ذلك الى انخداع فرنسة باقوال اللاجئين الموتورين الذين كانوا قد هربوا من المانيا او طُردوا منها ... وقد فتحت فرنسة ابوابها في وجه هؤلاء ، وارادت ان تستفيد منهم ، ومن تشكياتهم ودعاياتهم ، في اثارة الرأي العام العالمي ضد المانيا ، واستمالته نحو فرنسة .. في حين ان القسم الاعظم من هؤلاء اللاجئين كانوا من الطفيليين الموتورين ، الذين لا يرتبطون باي وطن من الاوطان العتيدة ارتباطاً قلبياً ، ولذلك اخذوا يصورون المانيا على غير حقيقتها . صوروا النظام الجديد الذي قام في المانيا كمجموعة تعسفات بربرية ، تقوم بها جماعة من الطغاة ، فيكرهها جميع الناس . قالوا ان كل الناس ينفرون من النازية نفوراً شديداً ويستعدون للثورة عليها استعداداً كبيراً .

ولقد سمعنا كلنا انعكاسات هذه الاقوال والمدّعيات : المانيا على ابواب ثورة داخلية ستندلع نيرانها قريباً ، فتجرف الهتلرية جرفاً عنيفاً .. كل شيء ردي ، هناك . حتى المعادن التي تُصنع منها الاسلحة ، حتى الاسمنت الذي يستعمل في بناء الحصون ، لم تكن من الانواع الجيدة ...

لقد فتح الفرنسيون ابواب بلادهم لمئات الآلاف من هؤلاء الموتورين على مصاريعها ، كما فتحوا آذانهم لسماع دعاواهم ودعاياتهم ، وصاروا يصدقون كل ما يقولونه ، ولا سيما أن ما يقوله هؤلاء كان موافقاً لما يتمناه الفرنسيون كل التمني ..

وانا اميل الى الاعتقـــاد بان ذلك كان من أهم الاسباب التي أدت الى انخداع فرنسة في تقدير قوة عدوتهـــا وأودت بها الى الانكسار الفظيع ..

فقد افاضت الجرائد كثيراً في ذكر اعمال الناس الذين سموا باسم « الرتل الخامس » وبحثت كثيراً عن الدور الذي لعبـــه اولئك الذين كانوا يقومون بدعايات متسترة – على حساب المانيا – ويهيئون بذلك الجو النفسي الملائم لعمل الجيوش الجرارة ..

غير انني أقول – ان عمل ارتال اللاجئين في فرنسة لم يكن اقل تأثيراً من عمل الارتال الخامسة في النتيجة النهائية . فان ارتال اللاجئين الموتورين اضرت فرنسة من حيث كانت تريـد خدمتها . وخدمت المانيا من حيث كانت تحسب انها تضرها .. لان دعاياتها خدعت الفرنسيين خدعة قوية في امر قوة المانيـــا ، وجرتهم الى الحرب والاصطـدام مع قوى تفوق قواهم تفوقاً عظيما .. وأدت بذلك الى انخذالهم ذلك الانخذال المريع .

٤

والآن ، بعد ان حدث ما حدث فظهرت الحقائق للعيـــان ، تبين بصورة لا تترك مجالا للشك ان الجيش الالمـــاني الذي هاجم الجيش الفرنسي ، كان يفوقـه تفوقاً عظيما من جميع الوجوه المادية والمعنوية . كان يفوقه تفوقـا بارزاً من حيث العدد والتجهيزات والانضباط والقيـــادة ... وتعبير اقصر ، من حيث الكمية والكيفية ...

من المعلوم ان المانيا كانت جُرّدت من السلاح ، وحرمت حق التسلح ، بعد الحرب العالمية ، فظلت محرومة من الاسلحة ومن معامل الاسلحة ، مدة تزيد على عشر سنوات . فعندما بدأت تتسلح مؤخراً – سراً في بادىء الامر ، وعلناً في نهاية الامر – لم تتقيد بشيء من القديم ، بطبيعة الحال ... فاستحضرت انواعاً جديدة من الاسلحة الحربية ، وابتكرت انواعاً جديدة من اساليب الحرب. ويظهر انها كانت تمكنت من ابتكار انواع عديدة ، فاستفادت من كل نوع منها في احدى صفحات حروبها المتوالية – في بولندة ، وفي النروج ، وفي هولندة . وعندما جاء دور هجومها على فرنسة استطاعت مفاجأتها بوسائط حربية وبأساليب حربية اخرى افسدت على الجيش الفرنسي جميع الخطط التي كان قد وضعها ...

زد على ذلك ان الجيش الالماني الذي انقضّ على الجيش الفرنسي بمثل هذه الوسائط الحربية الجديدة ، كان متفوقاً عليه تفوقا كبيراً من حيث العَدد ايضاً. واذا بحثنا عن اسباب هذا التفوق العددي ، استطعنا ان نذكر اموراً كثيرة منها مساعدة الموقع الجغرافي ، وسير صفحات الحرب ، وكثرة وسائط النقل ، ونظام خطط التعبئة .. وما اشبه ذلك من العوامل والاسباب ، غير اننا – مع كل ذلك – نضطر الى التسليم ، بان السبب الاصلي يعود الى كثرة النفوس ، اذ من المعلوم ان نفوس المانيا تناهز ضعف نفوس فرنسة ، فلا غرابة والحالة هذه ان يتفوق جيشها على جيش فرنسة ، تفوقاً كبيراً ، من حيث العدد ايضاً ..

ومما يجدر بالانتباه ، ان قضية النفوس كانت من القضايا التي

اخـذت تشغل بال الفرنسيين وتثير مخاوفهم منذ مدة غير يسيرة . فان الاحصاءات الموجودة تدل على ان نفوس فرنسة كانت مساوية لنفوس المانيـا سنة ١٨٦٥ ، غير انها لم تزد بعد ذلك خلال سبعين سنة – أي حتى سنة ١٩٣٥ – إلا ثلاثة ملايين ، في حين ان نفوس المانيا زادت خلال المدة نفسها اكثر من ثلاثين مليوناً .

ولا شك في ان قضية النفوس وحدهـــا ، ليست من القضايا الحاسمة في سير التاريخ ؛ فان التاريخ يرينا أمثلة كثيرة على تغلب بعض الامم الصغيرة على بعض الامم الكبيرة ، بالرغم من قلة عدد نفوسها . غير ان مثل هذه الحوادث لا تحدث عادة الا عندما يكون فرق عظيم بين الأمتين من حيث مستوى الحضارة والثقافة ، وشدة الروابط الاجتماعية وقوة الايمان القومي .. واما اذا كانت الامتان متقاربتين من هذه الوجوه الثقافية والاجتماعية – كما هي الحالة في فرنسة والمـانيا الان – فمن الطبيعي ان تكتسب قضية النفوس خطورة خاصة ، وتؤثر في سير التاريخ تأثيراً كبيراً ..

وقد انتبه عدد غير قليل من الكتاب والمفكرين في فرنسة الى الخطر الذي اخذ يحدق ببلادهم من جراء سير نفوسهـــا ؛ حتى انه ظهر بينهم من قال : يجب ان نعلم باننا في كل سنة من السنين التي تمر علينا على هذا المنوال نخسر معركة ، ونفقد جيشاً دون ان نُقدم على حرب ودون ان نشعر بهذه الخسارة ، في حـــين ان المانيا – بعكسنا – تربح في كل سنة معركة وتحصل في كل سنة على جيش جديد ، دون ان تُقدم عـلى حرب ، ودون ان تضحي شيئاً في سبيل ذلك ...

إلا ان الامور ظلت على حالتها هذه ، بل زادت خطورة من جراء التدابير المتخذة في المانيا في هذا السبيل . لقد وضعت المانيا عدة قوانين واتخذت عدة تدابير ، لضمان تكاثر النفوس – زيادة على سيره المعتاد – في حين ان فرنسة لم تخرج عن ساحة النقد والبحث في هذا المضمار ، ولم تقدم على وضع قانون يلتفت الى هذه القضية الحيوية بعض الالتفات الا قبل اندلاع نيران الحرب الحالية ..

كان رجال السياسة في فرنسة يأملون ان يتغلبوا على المشاكل والمخاطر التي تنجم عن مسألة النفوس بوسيلتين غير مباشرتين :

الأولى – التجنيد من المستعمرات ، وتقوية الجيش الوطني بجيش المستعمرات .

الثانية – تكوين اتفاقات سياسية وعسكرية تربط فرنسة بكتل كبيرة قوية ، تكفي لتلافي نقص النفوس الاصلية ، بل تضمن التفوق على اعدائها من جهة النفوس ايضاً .

غير انه مما لا مجال للشك فيه ، ان الجيوش التي تجمع من اهالي المستعمرات وتساق الى ساحات الحروب سوقاً ، وتحمل على خوض غمار الحرب دون ان تشعر بدافع باطني يحبب اليها الاستقتال ، إن مثل هذه الجيوش لا يمكن ان تتكافأ والجيوش الوطنية التي تعمل وتحارب بشعور وطني وايمان قومي ...

واما الاتفاقات السياسية فقلما تستقر على حال ، فلا تستطيع ان تضمن الاستقبال في جميع الاحوال ، لأن منافع الدول والأمم معضلة إعضالا شديداً ، ومتشابكة تشابكا كبيراً . فاذا رأت دولة ما ان من مصلحتها ان تتفق مع دولة اخرى في بعض

الظروف، فقد ترى من مصلحتها ان تلتزم الحياد ،او ان تتفق مع غيرها عند تبدّل تلك الظروف. ان نظرة بسيطة الى تقلب الاتفاقات السياسية ، وتطور التكتلات الدولية ، تكفي لاظهار ذلك للعيان ...

هذه ايطاليا ، فقد انضمت الى فرنسة وانكلترة ضد روسية في حرب القرم ، ثم اتفقت مع المانيا ضد فرنسا بعد استيلاء الاخيرة على تونس .ومع هذا ، لقد انضمت الى اعداء المانيا خلال الحرب العالمية ، وأخيراً عادت واتفقت مع المانيا ضد اعدائها في الحرب الحالية ...

وهذه انكلترة ، فقد حاربت فرنسة في عهد نابليون ، ثم اتفقت معها ضد روسيا في حرب القرم ، ثم اتفقت مع اليابان فشجعتها على محاربة الروس بعكس ما عملته فرنسة عندئذ ، ثم اتفقت مع فرنسة وروسية ضد المانيا في الحرب العالمية ثم حاربت روسيا بعد انتهاء الحرب المذكورة ، وأخيراً بذلت الجهود الجبارة للاتفاق معها، قبيل الحرب الحالية ، وكذلك الامر في علاقات انكلترة مع تركية فانها كانت على الدوام يوماً لها ويوماً عليها ...

ونحن نستطيع ان نذكر عشرات الامثلة على ذلك... مما يدل على ان مثل هذه الاتفاقات لا توجد موازنات مستقرة ، بين تطور المنافع وتقلب الاتجاهات ...

ولذلك كله ، سارت الامور خلال الحرب الحالية ، سيراً غريباً بالرغم من الاتفاقات والضمانات السابقة . وقد أدى هذا السير الى بقاء الجيش الفرنسي – في آخر الامر – وحيداً إزاء

الجيش الالماني في ساحات الحرب ... فازداد بذلك تأثير التفوق العددي زيادة هائلة ...

*

هذا ، ويجب علينا اخيراً ان نشير – حينما نبحث عن اسباب انهيار فرنسة – الى سبب آخر ، سبب يجب ان يُعطى الموقع الاول بين سلسلة الاسباب ، بل يجب ان يُعتبر السبب الاصلي ، بل هو علة العلل ...

هذا السبب هو علائم بلبلة الآراء وفوضى النزعات التي كانت تسود فرنسة ، إزاء مظاهر وحدة الكلمة وتواصل الصفوف التي كانت تميز المانيا ...

لقد دخلت المانيا الحرب ، وهي متحدة الكلمة ، تسير وراء زعيم واحد تثق به ثقة لا حد لها ، وتتجه نحو هدف عام يعرفه الكل ، ويقدسه الجميع ...

في حين ان فرنسة ، كانت منقسمة على نفسها في معظم امورها . وقد بلغت فيها الشهوات الحزبية ، درجة تكاد تتغلب على الفكرة الوطنية . وتعددت الاحزاب تعدداً لا مثيل له في التاريخ ، فلم يبق حزب قوي يستطيع ان يضمن الاكثرية ويدعم الحكومة حتى بالاتفاق مع حزب ثان ، فاصبح من المحتم على كل حكومة تسعى الى تسيير دفة الامور ان تتفنن في اجراء ترتيبات معقدة بين عدة احزاب متخالفة ...

وبما ان مثل هذه الترتيبات المعقدة تكون معرضة للتغيير السريع بتقلب الظروف ، فقد اصبح التوازن الحكومي شبيهاً

بالاعمال البهلوانية التي يقوم بها اللاعبون على الحبال ...

ولا حاجة للبيان ، ان تعدد الاحزاب وتنازعها على هذا الوجه كان يفسح مجالا واسعاً لدسائس النفعيين ، ويزعزع ثقة الشعب بالحكومات ، ويسيء الى سمعتها الى حد كبير ...

واذا كان تسيير دفة الشؤون بين هذه النزعات المتخالفة ، من الامور الممكنة في الاحوال الاعتيادية، فلا شك في انه يصبح من المستحيل خلال الازمات الحربية ، لأن الحرب تحتاج الى اعمال منسقة تنسيقاً تاماً ، لاسيما في هذا العهد الذي اصبحت فيه الاعمال الحربية غير مقتصرة على الجيوش المحاربة وحدها ، وغير منحصرة بساحات القتال وحدها ، بل شاملة جميع ابناء الوطن وجميع أقسام البلاد ... فالبلبلة في الآراء والفوضى في الاعمال ، من الامور التي لا يمكن ان تلتئم مع ضرورات الحرب بوجه من الوجوه ....

فاذا اقدمت امة ما على الحرب وهي متبلبلة الآراء ، فلا بد من أن تتعرض الى كوارث ونكبات ...

وهذا ما حدث فعلاً في فرنسة ، لأن البلبلة التي كانت تضطرب في نفوس ابنائها حين بدء الحرب ، ازدادت يوماً فيوماً ، من جراء سير الوقائع من جهة ، وبتأثير اذاعات الالمان من جهة اخرى . ولا شك في انها كانت علة العلل في امر الانهيار ...

*

وهنا مسألة هامة تتطلب التفكير والاهتمام .

ان الحالة المبحوث عنها ، من تعدد الاحزاب وبلبلة الآراء لم تكن من الامور الشاذة في فرنسة ، بل هي من الامراض الاجتماعية

المزمنة ، التي كانت تنخر روح فرنسة منذ مدة غير يسيرة . ومع هذا فانها لم تؤدِّ في الماضي الى انكسار وانهيار، لأن الاحزاب كانت تنبذ – عادة – منازعاتها عندما تشعر بالخطر الخارجي ، وتسرع الى الاتحاد والتكتل ، عندما يدعوها الى ذلك داعي الوطن كما حدث فعلاً في الحرب العالمية ...

لماذا لم يحدث ذلك في هذه المرة ؟ لماذا لم تتحد الاحزاب امام الخطر الهائل الذي احدق بفرنسة ، منذ نشوء الحرب الحالية ؟

لا شك في ان ذلك لا يمكن ان يعلل الا بالقول : ان داء الحزبية كان قد اشتد الى درجة اصبح معها لا يتأثر من ضرورات الحرب، وان روح الفردية كانت قد تقوّت الى درجة تحوّلت معها الى انانية مفرطة، تتغلب على الروح الاجتماعية والروح الوطنية ..

غير ان هذا التعليل لا يحل المسألة حلاً مرضياً ، فيجب علينا ان نتساءل – بعد هذا التعليل ايضاً – « لماذا اشتدت روح الحزبية الى هذه الدرجة ،ولماذا تقوت فكرة الفردية الى هذا الحد؟»

انني اعتقد ان الدعايات الشديدة المستمرة التي قامت في طول فرنسة وعرضها منذ عدة سنوات ، ضد النظام النازي والفاشيستي ، لم تخلُ من التأثير الشديد في هذا الباب. ان تلك الدعايات كانت تستهدف – في حقيقة الامر – تبغيض المانيا وايطاليا ، غير انها كانت تهاجم ، قبل كل شيء، « النظام الجديد » الذي اختارته لنفسها كل واحدة من هاتين الدولتين ، مهاجمة عنيفة وذلك من وجهة تأثيره في الحرية الفردية في الدرجة الاولى . ولذلك اخذت الدعايات المذكورة تستمد قوتها من «فكرة الحرية» و«نزعة الضمير»

المنتشرة في البلاد، فصارت تزدري حتى بـ «روح التكاتف والتراص» و «دعوة التوحد والتضحية» التي يتضمنها هذان النظامان. فان الكتاب والخطباء كلما ارادوا تزييف النازية ومهاجمتها لوحوا امامها علم «الحرية المطلقة والفردية التامة» دون ان ينتبهوا الى التأثيرات والاضرار التي قد يحدثها ذلك في داخلية البلاد ونفسية الناس. وعلى هذا الوجه تقوّى الداء وتأصل، وصار الناس يمجدون «الحرية» تمجيداً مطلقاً ولو أدت الى الفوضى، وينفرون من «التوحد» ولو اصبح ضرورياً لحياة الامة، ويسترسلون في «الفردية» ولو تحولت الى انانية فتاكة...

وفي الواقع ان محاذير ومخاطر هذه الامور لم تبق خافية على انظار جميع الفرنسيين، بطبيعة الحال. فقد ظهر بين رجال الفكر والسياسة من شعر بالاخطار التي ستنجم عن استمرار هذه الاحوال ومن اخذ يعارض الأفراط في فكرة الحرية فيدعو الى لمّ الصفوف وتوحيد الكلمة، حتى ظهر من يحمل بعض الحملات على روح الفردية والانانية... غير ان الدعايات التي ذكرناها آنفاً، كانت قد اثرت في النفوس تأثيراً عميقاً حتى صار الناس ينظرون الى كل محاولة من هذا القبيل، كضرب من ضروب النازية أو الفاشية، كما اخذوا يتهمون معتنقي مثل هذه الآراء بخدمة الاعداء وخيانة الوطن...

وعبثاً حاول بعض الكتاب والمفكرين ان يرشدوا الناس الى سواء السبيل بقولهم: «يجب ان نكره النازية من حيث سياستها الخارجية وحدها، فلا يشمل كرهنا لها جميع أعمالها وجميع خصائصها... ومهما كرهنا النازية من وجهة سياستها الخارجية

فيجب أن لا ننكر أنها قامت باعمال هامة في سبيل الاصلاحات الداخلية ، والتنظيمات الشعبية . إن بعض تلك الاعمال الداخلية لجديرة بالاعجاب ، وحرية بالاقتداء ...» غير أن أصوات هؤلاء المفكرين ضاعت بين صرخات الصارخين، الذين ظلوا يهاجمون النازية من جميع الوجوه باسم الحرية ... ويستخفون بجميع مبادئها واعمالها باسم الفردية ...

ولذلك استمرت في فرنسة الامراض والنزعات السياسية والاخلاقية النفسية التي شرحناها آنفاً، خلال الحرب أيضاً... ولا شك في أن هذا الاستمرار كان أهم الاسباب التي أدت الى الانهيار.

*

ومن الغريب ان دعايات « الحرية والفردية » المفرطة ، التي كانت قد انتشرت في فرنسة، فأودت بها الى الانهيار - كما اسلفنا - أثرت تأثيراً عميقاً في آراء عدد غير قليل من كتاب العرب ، فراح البعض منهم يردد تلك الدعايات بحماس شديد ، حتى بعد ظهور اضرارها الفادحة للعيان، في الويلات والنكبات التي جرتها على فرنسة نفسها..

فقد نشر احد الكتاب المشهورين في احدى المجلات المصرية الشهيرة، سلسلة مقالات حول فرنسة ، بعد انهيارها ، ابدى فيها من الآراء ، ما يستوقف النظر، ويتطلب النقاش ..

فقد وصف الكاتب المحترم في مقالاته هذه الحالة النفسية التي كانت قد وصلت اليها فرنسة قبل الحرب الحالية بكلمات صريحة ، فكتب - في جملة ما كتبه في الاقسام المختلفة من مقالاته المذكورة - الكلمات التالية :

« كانت شهوة السياسة الحزبية في فرنسة أقوى من الفكرة الوطنية ...

« امتلأ الفرنسي بنفسه ، واصبح الفرد كل شيء ، يؤثر نفسه بكل شيء ، يؤثرها باعظم حظ ممكن من اللذة ويجنبها أعظم حظ ممكن من الالم ..

« استجاب الفرنسي لداعي العقل الفردي ، اكثر مما استجاب لداعي العقل الاجتماعي .

« قد رأى الفرنسي ان الحياة لم تُمنح للناس ليبذلوها في الجهود المضنية التي تنتهي إلى الفناء ، إنما مُنحت للناس لتكون عليهم نعمة ، ليستمتعوا بلذاتها وليتجنبوا آلامها ...

« فرنسة آثرت نفسها بالعافية واللذة ونعيم الحياة ... »

انا لا آخذ على نفسي مسؤولية هذه الكلمات القاطعة ، ولا اشترك في إطلاقها وتعميمها على هذا المنوال . مع هذا ارى من الضروري ان نُنعم النظر فيها قليلا ...

ان هذه الصفات الاخلاقية ، وهذه النزعات النفسية ، هذه الفردية المفرطة التي لا تفكر بشيء غير نفسها .. والتي تتجنب الجهود المضنية على اختلاف انواعها ، فتحاول ان تنال أعظم حظ ممكن من اللذة ... والتي تؤثر نفسها على الدوام بالعافية واللذة ونعيم الحياة ... كل من ينعم النظر في هذه الصفات ، يضطر الى التسليم معي ، بانها تدل على شيء واحد ، هو « التفسخ الاخلاقي » وتؤدي بطبيعة الحال الى نتيجة واحدة ، هي « الانحلال الاجتماعي » .

غير ان الكاتب المحترم ، لا يقول بذلك ابداً بل بالعكس ،

يرى في كل هذه الصفات والحالات، اثراً من آثار التحضر والتثقف ونتيجة من نتائج الأمعان في الحضارة والثقافة . انه يعلل كل واحدة منها بقوله « ان الفرنسيين قد تحضروا وامعنوا في الحضارة». و « مضت فرنسة في الحضارة الى أقصى غاياتها » ... ويكرر ذلك مرات عديدة ، ويعتبر كل ذلك من نتائج « الحضارة والثقافة» الطبيعية . حتى انه يقول بكل صراحة ما يأتي :

« ان أية امة من الامم تبلغ من الثقافة ما بلغته فرنسة ، وتسلك بالثقافة الطريق التي سلكتها فرنسة ، منتهية من غير شك الى مثل ما انتهت اليه فرنسة ...»

ويزيد على ذلك قائلا : « نحن بين طريقين : إما ان نستقبل الثقافة احراراً (يريد مثل ما تفعل فرنسة) واما ان نستقبلها مقيدين (يريد مثل ما تفعل المانيا) كما يقول اخيراً : « أما انا فاختار الطريق الاولى ، واقبل ان أتعرض لما تتعرض له الامم الحرة من الوان الخير والشر ومن اختلاف الخطوب » .. ويعلل اختياره هذا بنزوعه الى الحرية حيث يقول : « ان الحياة الحرة .. خليقة بان نشتريها باغلى الاثمان » ...

انا لا استطيع ان اشارك الكاتب المحترم في آرائه هذه .. انا لا اسلم بان الاحوال والصفات التي ذكرها « نتيجة طبيعية » للأمعان في الحضارة والثقافة ، كما لا اسلم بصحة رأيه في انحصار الامر بين طريقين « لا ثالث لهما » .

والواقع ان حديثي هذه الليلة قد طال ، فلم يبق امامي - مع الاسف - مجال للاسهاب في هذا المضمار ..

ومع هذا ، أرى من الضروري ، ان لا أنهي حديثي دون ان أناقش الكاتب المحترم قليلا ، في كلمته الاخيرة .

« ان الحياة الحرة .. خليقة ان تشترى بأغلى الاثمان .. » ان سياق الكلام – في المقالات المذكورة – يدل دلالة صريحة على ان الثمن الذي هو موضع البحث هنا ما هو إلا « كيان الدولة » و « حياة المجتمع » ... هل يجب علينا ان نسلم بهذا القول ؟ هل يجوز لنا ان نقدّم « الحياة الحرة » على « كيان الدولة » وعلى مصالح المجتمع الحيوية » ؟ وهل يمكننا ان نضحي « الحياة الحرة » بتضحية حياة الدولة و كيانها ؟..

انا لا أرى داعياً لاطالة الحديث في الأجابة على هذه الاسئلة . مع هذا أرى من المفيد أن اذكر كلمة قالها قبل الحرب العالمية ، احد عظماء السياسة في فرنسة ، و كلمة اخرى كتبها احد كبار الادباء ..

في عهد وزارة بريان استعد الاشتراكيون لحمل الناس على اضراب عام ، يشمل عمال وموظفي السكك الحديدية ، ليشلوا جميع الاعمال والحركات في طول البلاد وعرضها . وعندما اطلعت الحكومة على اخبار هذه الاستعدادات اعتقدت بان ذلك قد يؤدي الى كارثة كبرى ، نظراً لما كانت تعرفه عن استعدادات المانيا ، ونظراً لاحتمال إقدامها على انتهاز فرصة هذا الاضراب العام ، للاستيلاء على البلاد استيلاء فجائياً .. فقررت الحكومة الفرنسية ان تتخذ تدبيراً حاسماً في هذا المضمار ، والتجأت الى طريقة التجنيد ، جندت عمال السكك الحديدية قبل يوم الاضراب ، وأمرتهم بتسيير

القطارات ، بصفتهم جنوداً وضباطا . ومن المعلوم ان العامل حر في العمل او الاضراب، غير انه يفقد هذه الحرية - بطبيعة الحال - عندما يصبح جنديا .. وهكذا استطاعت الحكومة ان تفسد على الاشتراكيين ترتيباتهم في هـذا الباب ، وان تحول دون تحقيق الاضراب العام ، الذي كانوا يستعدون له منذ مدة طويلة ..

هذا التدبير سبب هياجاً عظيما على الحكومة ، فاخذ المعارضون يقولون : « هذا إخلال باحكام الدستور ، وانه تعـدّ على حق الحرية.. » غير ان رئيس الحكومة رد على هذه الاعتراضات قائلا : « ان العمل الذي قمتُ به لا يخالف الدستور ، ولا يكوّن تعـدياً على حرية الافراد . مع هذا أود ان اصرح من على هـذا المنبر ، بانني لو كنت اعلم بانه مخالف للدستور وحقّ الحرية ، لما احجمت عن القيام به .. لانني اعتقد ان حياة فرنسة اغـلى من الدستور ، واثمن من حرية الافراد ... »

ان ساسة فرنسة الذين كانوا يحملون مثل هـذا الاعتقاد قادوا بلادهم الى النصر في الحرب العالمية المنصرمة .. واما رجال فرنسة الجدد الذين فقدوا هذا الاعتقاد وصاروا يعتبرون هـذه الاعمال ضرباً من ضروب النازية ... فقـد اوصلوا بلادهم الى وادي الانحدار ...

*

هذا واذكر انني كنت حضرت رواية في باريس قبيل الحرب العالمية ، عنوانهـا « الغرب » يصور مؤلفها ضابطاً من كبار ضباط البحرية الفرنسية يعيش مع راقصة مغربية تنحدر من عشيرة

مراكشية . وكان للضابط أخ شاب مأخـــوذ بالآراء والنظريات المعارضة للخدمة العسكرية ، فيفرّ من الجنـــدية . غير ان اخاه الضابط يتمكن - بعد سلسلة من الوقائع - من اقناعه واعادته الى حظيرة الخدمة الوطنية . وهنا تقف المرأة المغربيـــة مدهوشة أمام خضوع الشاب لكلمات اخيه هذا الخضوع ، فتتساءل : « ألم يكن هذا الشاب حراً ؟ فكيف يخضع لأوامر الضابط كأنه كلب مطوق بالاغلال ، أو عبد يمتثل أوامر سيده الذي اشتراه بمـــاله الخاص ؟ » .

اما الضابط فيبتسم لاقوال الراقصة المغربية . وعندما يختلي بها يقول لها ما مؤداه — « ان الحرية في نظرنا نحن الغربيين ، هي غير الحرية التي تقولون بها وتطلبونها انتم الشرقيين ، الحرية في نظركم ان يرتدي المرء برنسه ، ثم يمتطي صهوة جواده ، فينطلق في الصحراء حيث شاء ... اما نحن ، فلا نطلب تلك الحرية ، فان كلاً منا يحمل في عنقه أغلالاً وأصفاداً .. اغـــلالا وأصفاداً مصنوعة من ذهب معنويّ .. من ذهب العنعنات والتاريخ والواجبات ... نحن نحب تلك الاصفاد بكل جوانحنا ، ونحمل تلك الاغلال بكل سرور .. نحن نبجل تلك الاصفاد والاغلال ، بل نقدسها كل التقديس .. »

ان الجيل الذي يقول مثل هذه الاقوال ، قد قاد فرنسة الى المجد والنصر ، واما الجيل الذي عدل عن تقديس الاغلال الاجتماعية فأخذ يتمسك بالحرية المطلقة .. الجيل الذي ترك التساند الاجتماعي جانباً ، فأخذ يقدس الفردية .. هذا الجيل .. قد اوصل فرنسة الى هذه النكبات ..

انني اعتقد بان هذه النتيجة يجب ان تكون درساً ثميناً لجميع شبان العرب ..

فانا اود ان يعرف المرء أن الحرية ليست غاية قائمة بنفسها بل هي واسطة من وسائط الحياة العالية .. والمصالح الوطنية التي تتطلب من المرء احياناً تضحية الحياة والنفس لا بد أن تتطلب منه تضحية الحرية أيضاً في بعض الظروف ...

ان كل من لا يضحي بحريتـــه الشخصية في سبيل حرية امته – عندما تقتضيه الحال – قـــد يفقد حريته الشخصية مع حرية قومه ووطنه . ..

وكل من لا يرضى ان « يُفني » نفسه في الامـة التي ينتسب اليها – في بعض الاحوال – قد يضطر الى « الفناء » في امـة من الامم الاجنبية التي قد تستولي على وطنه ، في يوم من الايام ...

ولذلك ، انني اقول بلا تردد ، وعلى الدوام :

الوطنية ، والقومية قبل كل شيء ، وفوق كل شيء ... حتى فوق الحرية ، وقبل الحرية ..

بين القوى المادية والقوى المعنوية *

●

إن الوقائع والحوادث الهائلة التي تتمخض عنها الحرب الحالية كل يوم ، تلقي ضوءاً جديداً على نواميس السياسة والاجتماع ، فتحمل الكثيرين من المفكرين على إعادة النظر في آرائهم السياسية وفي معتقداتهم الاجتماعية .

غير أن البعض منهم أخذوا يتسرعون في تفسير الحادثات الحالية على علاتها ، فصاروا يقولون : إن الحرب الحالية حرب مكائن ، تضطرم نيرانها بين الماديات والمعنويات ، وتعلن انهزام القوى المعنوية أمام القوى المادية ، وهي حرب مادية لا تعتمد على فضائل النفس وخصائص الروح ، بل تعتمد على سرعة الدواليب وقوة الانفجار في مكائن النقل والتدمير ، من سيارات وطيارات ، ودبابات ، وغواصات ، ومدافع ، وألغام ، وبارجات ... ودارعات ...

---

* اذيعت في بغداد عام ١٩٤٠ .

لا شك في أن هذه الوسائط المادية لعبت ولا تزال تلعب دوراً هاماً في الحرب الحالية ، ولا شك في أن دور هذه الوسائط المادية تعاظم وتفاقم بدرجة هائلة في الحرب الحالية ، بالنسبة إلى ما كان عليه في الحروب الماضية . فلا يخطىء من يقول لذلك إن هـذه الحرب كانت ولا تزال حرباً ميكانيكية ، لا يحرز النصر فيها دون تفوق الميكانيكيات ..

غير أن هذه الحقيقة لا تعني غلبة الماديات على المعنويات ، بوجه من الوجوه ... فلا يجوز لأحد أن يستدل منها على زوال أهمية فضائل النفس وخصائص الروح في تسيير الحرب ، لأن جميع هذه الوسائط الميكانيكية لم تكن مادية بحتة ، بل ان كل نوع منها يخفي وراءه مجموعة هائلة من القوى المعنوية ...

ان الدهشة التي تستولي على عقولنا ، عندما نسمع أخبار هذه الوسائط المادية ، من حصون ودبابات وطيارات وقنابل وقذائف وحاملات طائرات ، والغام مغنطة ... ان هذه الدهشة يجب ان لا تنسينا القوى العقلية والنفسية التي تكمن وراء جميع هـذه المكائن المادية ، فتسيرها نحو أهداف معينة ، وفق خطط معضلة ، وضعت بعد تأملات دقيقة .. عندما نسمع أخبار هـذه الوسائط المادية الهـائلة ، يجب أن لا ننسى العقول النظرية التي اخترعت اسسها ، والعقول العملية التي بحثت في طرق تطبيقها بما يلائم حاجات الحرب ، وطرق الاستفادة منها في سبيل غايات الحرب .. والعقول الادارية والاقتصادية التي عملت كل ما يلزم لأحضارها وانتاجها ، وقوة التدبير والتبصر التي عملت كل ما يلزم لتكديسها في الوقت

اللازم وتوزيعها على المحلات اللازمة من جهة وتدريب الجنود والضباط والقواد على كيفية استعمالها من جهة اخرى . . . وروح الاقدام والشجاعة والتضحية التي تتجلى في تسيير كل واحدة منها . . واخيراً ، وعلى الاخص ، روح الوطنية التي توحد أعمال وعواطف الملايين الذين يخدمون ويستخدمون هذه المكائن في خطوط القتال ووراءها ... ولا سيما روح التنظيم التي توحد اعمال الملايين من المكائن والملايين من البشر وتسيّرها إلى اتجاه واحد . .

جردوا هذه المكائن ، من دبابات وغواصات وطيارات والغام ، وقذائف ... جردوها من القوى المعنوية التي ذكرتها آنفاً ، تروا انها تتحول في لمح البصر الى كتل جامدة ، لا تعمل ولا تتحرك ، أو تنفجر انفجاراً اعمى فلا تخدم غاية من الغايات ، بل قد تخرب حتى المعامل والايدي التي صنعتها وتمحو الرجال والادمغة التي عملت لأحضارها ... فاذا كانت هذه الوسائط المادية قد عملت اعمالا هائلة ، ولا تزال تعمل اعمالا محيرة ... فما ذلك الا لأن وراءها أدمغة مفكرة وعواطف هائجة . . تحركها وتسيّرها نحو غايات خاصة ، وفق خطط مدبرة ، وُضعت بعد تفكير شامل وتأمل عميق ...

ولهذه الأسباب كلها ، نستطيع أن نقول بدون تردد : إن فضائل النفس ، وخصائص الروح لم تفقد أهميتها في الحرب الحالية ، بل انها لا تزال من أهم القوى المسيّرة لها . .

لا شك في ان الخصائص النفسية التي كانت تكفي لضمان النصر في حروب السيوف ، لم تعد تكفي لذلك في حروب الدبابات ،

والخصائص الروحيـــة التي كانت تكفي لضمان النصر في حروب تستند على هجوم الخيـالة ، لا تكفي في حرب تستخدم في الهجوم الدبابات والطيـارات والمظلات .. فلا مجال للانكار ان الحروب الحالية تتطلب خصائص روحية من نوع جديد ، وفضائل أخلاقية من نوع خاص ؛ غير انـه يجب ألا يغرب عن البال ، ان أسس هذه الخصائص والفضائل لا تزال هي هي: روح الطاعة في الافراد، وقوة التدبير في القواد ، وروح التضحية وفكرة الوطنية عنـــد الجميـع ...

ومما يجدر بالانتباه ، بوجه خاص ، أن الخصائص النفسية الـتي تلعب دوراً هاماً في الحروب الجديدة هي الخصائص الاجتماعية بوجه عام .. هذا ، ولو سألني سائل: « ماهي أدهش المكائن التي استعملت خلال هذه الحرب ؟ » ، لقلت بدون تردد هي : « ماكينة التنظيم والتدبير » لأنني أعتقد ان تأثيرات القيادة العسكرية والاقتصادية والتنظيم الاجتماعي والتماسك القومي خلال هـــذه الحرب ، كانت أعظم وأهم بكثير من عمل جميع المكائن التي استحدثت واستخدمت خلالها ، لانها كانت مدهشة في حد ذاتها ، كما كانت الواسطة الفعالة في اختراع واحضار وتسيير المكائن المذكورة نفسها ...

*

ان الحرب لا تزال مستمرة . ولا نغالي اذا قلنا انها قائمة بين « تنظيمات الامبراطورية البريطانية » وبين تأسيسات « الاشتراكية الوطنية الالمانية » من حيث الاساس . ان كلاً منا يستطيع ان يتنبأ عن نتيجة الحرب بعض التنبؤات ، كما يستطيع ان يدعم تنبؤاته

هذه ببعض الحجج والبراهين . غير انه لا يستطيع ان يدلي برأي حاسم في الموضوع . مع كل هذا اعتقد بانه يحق لي ان أدعي دون ان اخشى تكذيب الوقائع في يوم من الايام – : ان النصر سيكون حليف التنظيمات التي ستظهر أشد تماسكا واكثر صلابة وأبعد نظراً، واقوى تدبيراً ، من نظيرها .. وبتعبير آخر ، ان الكلمة الحاسمة في الحرب الحالية ايضاً ستكون للقوى المعنوية ، بالمعـــاني التي شرحتها آنفاً .

اصول ستر الحقائق ...*

•

ان الفكر البشري ينزع دوماً الى « معرفة الحقائق »، ويبذل جهوداً كبيرة لرفع الاستار التي تخفيها عن الابصـــار ، وكشف الاسرار التي تكتنفها من جميع الجهات ، فلا نغالي إذا قلنا إن تاريخ العلم وتاريخ الفلسفة وتاريخ الأديان إنما هي بمثابة قصص للجهود المتواصلة التي بذلها الفكر البشري في سبيل اكتشاف الحقائق على هذا المنوال ...

زد على ذلـــك ، أن بعض المفكرين لم يكتفوا بالسعي وراء « كشف الحقائق » فحسب، بل بذلوا قصارى جهدهم لتعيين «أقوم السبل» التي تؤدي الى اكتشاف الحقائق ومعرفتها أيضاً . فقـــد دوّن أرسطوطاليس أصول « منطق القياس » في القرون الاولى، كما وضع «باكون» أسس منطق «الاستقراء» في أواخر القرون الوسطى ، وكتب ديكارت مقاله الشهير عن «أصول كشف الحقائق»

---

* حديث اذيع من راديو بغداد سنة ١٩٤١

في أوائل القرون الاخيرة ، كما ثبّت « كلود برنار » أسس الطرق التجريبية في القرن التاسع عشر . وقد ظهر بعد ذلك كثير من العلماء والفلاسفة الذين بحثوا عن طرق اكتشاف الحقائق ، في كل ساحة من ساحات العلم والمعرفة ... هذا في ساحة الطبيعيات ، وذاك في ساحة النفسيات ، هذا في ميادين الاجتماع بوجه عام ، وذاك في ساحة الاقتصاد بوجه خاص ... هذا في ميادين الفلك ، وذاك في أغوار التاريخ .

وهكذا، تعبّدت أمام الفكر البشري طرق « كشف الحقائق » على اختلاف أنواعها ... وأصبحت هذه الطرق من أهم مباحث الفلسفة العلمية ...

*

غير أنه ، مما يجدر بالانتباه أن بجانب هذه الجهود العظيمة المبذولة في سبيل « كشف الحقائق » ، جهوداً معاكسة لها كل المعاكسة تُبذل أحياناً... جهوداً تستهدف عكس ما يستهدفه العلماء والباحثون ... جهوداً ترمي إلى « إخفاء الحقائق وكتمها » ، عوضاً عن إظهارها وكشفها ... جهوداً تستهدف « ستر الحقيقة عن الأبصار » و « برقعتها ببراقع خداعة » ، تُظهرها بمظاهر تختلف عن وجوهها الأصلية اختلافاً كلياً ...

ان هذا النوع من الجهود يبذل - عادة - بقصد دفع الاضرار او جلب المنافع ، عندما يُتوقع حدوث ضرر من شيوع الحقيقة ، ويُنتظر حصول فوائد من كتمانها او من ذيوع عكسها ...

ان المنافع او الاضرار التي تُستهدف في مثل هذه الاحوال

كثيراً ما تكون شخصية .. مثل ستر عيب ، أو إخفاء جريمة ، استجلاب ودّ ، أو تسكين غضب ، تقديم خدمة لصديق ، أو أخذ ثأر من عدو... ومن المعلوم ان أمثلة ذلك تشاهد كل يوم في سلوك الكثيرين من الاشخاص ، في علاقاتهم العائليـــة ، ومعاملاتهم الاقتصادية .. وحياتهم الاجتماعية ..

غير ان المقـاصد التي تُستهدف في مثل هذه الجهود ، قد تخرج عن نطاق المصالح الشخصية ، وتدخل في ساحات المصالح العامة ، وقد تكون من جملة المصالح القومية والوطنية .

واما أمثلة الجهود التي تُبذل - بهذه الصورة - في سبيل « ستر الحقائق وبرقعتها » - بقصد خـدمة المصالح العامة ، فتشاهد كل يوم ، فيما يسمى عادة باسم « الدعاية » ...

*

ان الدعاية السياسية لعبت دوراً هاماً في تاريخ الأمم ، منـذ أقدم العصور الى الآن . فانها من حيث الاساس تكون سرّية في بعض الاحوال ، وعلنيـة في الاحوال الاخرى ، فردية في بعض الاحوال ، ومعشرية في الاحوال الاخرَى .

واما وسائل الدعاية فقـــد كانت في بادىء الامر منحصرة في الاحاديث والخطب ، ثم انضم اليها - مـــنذ قرنين - الصحف والنشرات المطبوعة ، وأخيراً ، انضم الى كل ذلك الأفـــلام السينمائية والأذاعات اللاسلكية ..

تعمل الدعاية السياسية عملها بهذه الوسائل المتنوعة بلا انقطاع في حالتي السلم والحرب . غير انها تكتسب خطورة خاصة خـلال

الازمات والحروب .

كان « نابليون » يقدر اهمية الدعاية حق قدرها فقال : « ان اربع جرائد معادية تستطيع أن تأتي باضرار ، تفوق أضرار جيش مؤلف من مائة الف جندي » .

ان تأثير الصحافة في هذا المضمار ، قد ازداد زيادة هائلة ، منذ عهد نابليون ، بسبب انتشار التعليم من جهة ، وتطور وسائط الحرب من جهة أخرى . وقد ثبت أن الصحافة لعبت دوراً هاماً في جميع الحروب التي نشبت منذ ذلك العهد، ولا سيما في الحرب العالمية الاولى ...

إن وسائل الدعاية التي توسّل بها المتحاربون خلال الحرب العالمية المذكورة صارت موضوع ابحاث كثيرة ، فلم تبق خفية عن الانظار.

فمن المفيد أن نستعرض أهم الحقائق التي ظهرت من تلك الابحاث ، حول دور الدعاية في الحرب العالمية .

من المؤكد أن جميع الدول المتحاربة ، صرفت جهوداً جبارة ومبالغ طائلة ، في سبيل الدعاية . وأما ساحات الدعاية ، فكانت واسعة ومتنوعة جداً : دعاية في داخل البلاد ، دعاية في بلاد الاعداء ، دعاية في البلاد المحاربة ...

دعاية في داخل البلاد نفسها – بقصد ادامة روح الحماسة ، ومكافحة روح التذمر والاستسلام والقنوط ، دعاية لنشر الايمان بالنصر النهائي ، بغية حمل الناس على تحمّل أعباء الحرب على اختلاف أنواعها ، انتظاراً لذلك النصر المأمول ... دعاية في بلاد الاعداء - بقصد كسر معنويات الناس وإخماد حماستهم

عن طريق زعزعة ايمانهم بضرورة الحرب من جهة، وتخفيف اعتقادهم بالنصر النهائي من جهة أخرى، وإحداث بلبلة في الافكار، وتغذية روح التخوف والتذمر والتردد والقنوط التي تؤدي الى الاستسلام.

دعاية في البلاد المحايدة – بقصد التأثير على المحاربين من جهة، وعلى المحايدين من جهة أخرى .. وبغية توليد تيارات فكرية وسياسية، تضمن مساعدة البلاد مساعدة معنوية، أو اقتصادية أو سياسية، وقد تؤدي إلى محالفة ومساعدة عسكرية فعلية.

وقد تبين من الابحاث الكثيرة التي نشرت بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى، أنه قد حدث صراع عنيف بين الحلفاء وبين الدول المركزية، في ساحة الدعاية. فقد وزّع اللورد نورثكليف الذي كان يتولى شؤون الدعاية الانكليزية، على صحف اميركا نحو مائة وخمسين مليوناً من الدولارات في سبيل الدعاية للحلفاء، كما صرفت الحكومة الالمانية لنفس الغاية نحو مائتي مليون من الماركات خلال السنتين الاوليين من الحرب .. كما تبين ان دعاية «دول الحلفاء» كانت أقوى وأعم وانجع من دعاية «الدول المركزية».

قال الكردينال «مرسييه» عندما سافر الى اميركا بعد الهدنة واطلع على حقائق الامور وبواطنها: «ان الحلفاء أحرزوا النصر بفضل جهود الصحافة».

وقال الزعيم «نيكولاي» الذي كان رئيساً لشعبة الاستعلامات في اركان الجيش الالمانية: «ان الحلفاء تغلبوا على الجيش الالماني بواسطة الدعاية» كما قال «بان الصحافة كانت أقوى اسلحة الدعاية التي استخدمها الحلفاء ضد الالمان». (ولا يغربنّ عن البال ان

الاذاعة اللاسلكية لم تكن قد خرجت الى عالم الوجود اذ ذاك .)
ولذلك نجد ان هتلر شعر بتقصير الالمان في هـذه الساحة ، خلال الحرب العالمية ، فاعتنى اعتناءً خاصاً بها ، قبـــل نشوب الحرب الحالية وخلالها ..

ان الدعاية لا تتقيد كثيراً ، بقيود الحقيقة ، ولا تتورع عن اخفائها تارة وتشويهها طوراً ، كما انها لا تتحاشى مخالفتها تماما ولا تتأخر عن خلق الاكاذيب واذاعتها ايضاً عند الاقتضاء ...

فكثيراً ما تلجأ الدعاية الى اختلاق الاكاذيب كما تبذل جهوداً كبيرة لأظهار هذه الاكاذيب بمظهر الحقائق الناصعـــة التي لا تقبل الشك ..

وقد عبر « كنغسلي مارتن » ، احد اركان الصحافة الانكليزية عن فلسفة ذلك باسلوب بليغ ، في أحد اجتماعات لجنة التعاون الفكري التابعة لعصبة الامم ، حيث قال ما مؤداه :

« ان الحرب تبيح للانسان أن يخرج على الكثير من المبادىء الاخلاقية التي شبّ عليها ، وتحتم عليه ان يقدم على أعمال كثيرة ، تعتبر من المحظورات في الاوقات الاعتيادية . فلا غرابة اذا مـا جعلت الكذب مباحاً ، بل اذا مـــا اظهرته بمظهر الواجب في بعض الاحيان ... »

هذا ومما يستحق الانتباه ، ان بين الحقيقة المحضة والكـذب البحت درجات متفاوتة ، وان من الأعمال والاقوال ، ما لا يمكن اعتباره موافقاً للحقيقة تماماً ، أو مخالفاً لها تماماً ، فلا يكون حقيقة خالصة ، ولا كذباً صريحاً .

ان رجال الدعاية يستفيدون من ذلك استفادة كبيرة ، فانهم اذا اضطروا الى تجنب الكذب البحت ، بعض التجنب ، خشية افتضاحه – يجدون وسائل كثيرة يتوسلون بها لتشويه الحقيقة بعض التشويه ، وتلوينها بألوان تلائم مقاصد الدعاية ، بوجه عام .

لنفرض ان أحد زعماء الاعداء خطب خطبة هامة ، فلا شك في ان رجال الدعاية في البلاد المعادية للزعيم المذكور لا يستطيعون ان يكتموا أخبار الخطبة كل الكتمان ، كما لا يستطيعون ان يعزوا اليه ما لم يقله ابداً ؛ غير انهم مع ذلك يستطيعون أن يشوهوا الخطبة تشويهاً كبيراً . انهم يلجأون الى طريقة الأجمال والتلخيص ، وخلال هذا التلخيص يحذفون بعض الفقرات ، ويقربون بين بعض الفقرات ، وبهذا الوجه يستطيعون أن يغيروا دلالة الخطبة تغييراً كبيراً ، دون أن يضيفوا اليها عبارة مكذوبة كذبا صريحاً .

وقد قال « كينغسلي مارتن » في أحد اجتماعات لجنة التعاون الفكري : « إن الصحفي الماهر يستطيع أن يكتب أعمدة كاملة لا يكون فيها «شيء» غير موافق للواقع ، ومع هذا يكون مجموع ذلك كله كذباً بحتاً . »

وكل رئيس تحرير ماهر ، يستطيع أن يغيّر دلالة مقالة من المقالات تغييراً كلياً بأجراء تغيير طفيف في بعض العبارات ، وبدَسّ بعض العناوين البسيطة فوق الاقسام المختلفة منها .

فيجب علينا أن نعرف حق المعرفة ان دوائر الدعاية في جميع البلاد المتحاربة لا تزال تتفنن في هذه الاساليب المختلفة تفنناً كبيراً ، وتتقن صناعة هذه الأسلحة المعنوية إتقاناً خارقاً ...

ومن ثمّة ، يترتب على المثقفين الذي يودون الاطلاع على حقائق الامور ان لا ينخدعوا بظواهر الأقوال ، ولا يعتمدوا على كل ما يقرأونه ويسمعونه ، بل عليهم ان يتلقوا اخبار الاذاعات بفكرة انتقادية دقيقة تساعد على كشف الحقائق ، بالرغم من المساعي التي يبذلها رجال الدعاية في سبيل سترها عن الأبصار .

اختلاف الآراء
باختلاف وجهات النظر

١

إن أهم المسائل الفلسفية التي تأمّل فيها واختلف عليها المفكرون منذ القرون الاولى هي : مسألة الحقيقة . وبتعبير آخر: مسألة المعرفة .

ما هي الحقيقة ؟ وكيف نستطيع أن نتوصل الى معرفتها ؟ ما هي قيمة المعارف البشرية، من وجهة مطابقتها للحقائق الكونية ؟ على ماذا نستند في أحكامنا العقلية ؟ والى أية درجة يحق لنا أن نعتمد على هذه الأحكام ، وأن نقطع بصحتها ؟ ..

هذه المسائل صارت مداراً لابحاث ومناقشات كثيرة ، ومنبعاً لآراء ونظريات متنوعة . ونستطيع أن نقول : إن أهم الفروق التي تميز « المذاهب الفلسفية » المختلفة بعضها عن بعض ، نشأت ، في حقيقة الأمر ، من اختلاف الأجوبة التي اعطيت على هذه المسائل الخطيرة .

فقد ظهر مذهب فلسفي شكّ أصحابه في قدرة العقل البشري شكاً كلياً ، فقالوا بوجوب الارتياب بجميع الاحكام العقلية ، وبضرورة الشك في كل الامور ..

كما ظهر مذهب فلسفي يعاكس ذلك معاكسة تامة . فقد اعتمد أصحاب هذا المذهب على العقل اعتماداً مطلقاً ، اذ قالوا : « ان العقل البشري جزء من العقل الخالق . فالتفكر انما هو بمثابة «تذكر الخلقة واعادة الخلق ». وادعوا «ان كل ما هو مفكور ذهناً موجود فعلاً » ..

وظهر مذهب فلسفي آخر ، قال اصحابه : « ان العقل ليس واسطة لمعرفة الحقيقة ، بل هو آلة للعمل » . كما زعموا « ان الحقيقة ليست المطابقة للواقع ، بل هي المساعدة على العمل » ...

ان هذه المسائل وأمثالها كانت - بادىء الأمر - موضوع مناقشات فلسفية بحتة . غير أنها أخذت - أخيراً - اتجاهاً علمياً ، وصارت تستنير بابحاث علم النفس وعلم الاجتماع أيضاً .

وقد لاحظ علماء النفس : ان للعواطف منطقاً خاصاً ، يختلف عن « منطق العقل » اختلافاً جوهرياً .

كما لاحظ علماء الاجتماع ، ان « قوانين المنطق » التي تسير محاكماتنا وتسيطر عليها ، الآن ، لم تكن من الامور التي خضعت لها اذهان جميع الأقوام في جميع الأزمان .

وقد لاحظ المفكرون - من جهة أخرى - ان الأحكام التي تصدرها عقولنا ، تنقسم إلى نوعين أساسيين : النوع الاول منها يتناول خصائص الأشياء وأوصاف الحادثات نفسها ؛ واما النوع

الثاني منها ، فيحوم حول « القِيَم » التي نُضفيها نحن عـــلى تلك الأشياء والحادثات ، من « الحسن والقبح » أو « الخير والشر ..» فالنوع الاول يعبّر عمانعرفه عن شؤون الكون وحقائق الاشياء . واما النوع الثاني ،فيعبر عما نشعربه أمام تلك الأشياء والحادثات ، من استحسان أو استهجان ..

ولا حاجة الى القول : ان وجوه الخطأ والصواب في النوع الاول من الاحكام تتعين وتتبين بالمحاكمات العقليـــة والمناقشات المنطقية ؛ غير ان النوع الثاني منها لا يخضع لأمثال هذه المحاكمات والمناقشات .

يتبين من هذه التفاصيل : ان العوامل الـتي تؤثر في العقول وتوجه المحاكمات كثيرة ومتنوعة .

ولهذا السبب ، نجد ان « المحاكمات العقلية » التي تحوم حول مختلف الأشياء والحادثات تتأثر تأثراً كبيراً « بالاطلاعات اللاحقة والمعلومات السابقة » ، التي تتعلق بتلك الأشياء والحادثات من جهة ، و« بالعواطف الفردية والنزعات الاجتماعية » التي تتصل بهـــا من جهة أخرى . و« الاحكام العقلية » التي تصدر – بناء على هـــذه المحاكمات – عن الاشياء والحادثات تختلف اختلافاً كبيراً ، باختلاف هذه العوامل المختلفة الفكرية والعاطفية .

ولذلك ، كثيراً ما نشاهد ان الواقعة الواحدة تُوجِـدُ في أذهان الاشخاص المختلفين ونفوسهم آراءً وانطباعات متخالفةً ؛ كما ان القضايا المتماثلة ،قد تُلهم الشخص الواحـــد – في ظروف متخالفة – آراءً وانطباعاتٍ متباينة ..

اما ان القضية الواحدة قد تثير في نفوس الاشخاص المختلفين واذهانهم انطباعات مختلفة ، فان كل واحد منا يستطيع أن يجد في ملاحظاته اليومية ، أمثلة كثيرة على ذلك .

غير اني أود أن أذكر لكم مثالاً واقعياً واحداً ، أعتقد انه من أبرز وأبلغ الأمثلة على هذه الحقيقة :

بين يديّ الآن قصيدتان قويتان متخالفتان ، لشاعرين كبيرين معاصرين ، عن واقعة واحدة ، وقعت في عاصمة الدولة العثمانية ، في أواخر عهد السلطان عبد الحميد .

كان ذلك سنة ١٩٠٥ ، لقد ارتاع الناس بعد وقت الظهر بقليل ، بدويّ انفلاق هائل ، هَزّ جميع أرجاء المدينة هزاً عنيفاً . لقد حدث هذا الانفلاق على مقربة من موكب السلطان ، بعد انتهاء صلاة الجمعة ، وأودى بحياة مئات من الناس ، ولكنه لم يُصب السلطان عبد الحميد نفسه بأي أذى . .

من المعلوم ان السلطان المشار اليه كان من صناديد الملوك المستبدين ، وكان يخاف على حياته خوفاً مَرَضياً ، فيتوقع في كل حين حصول اعتداء عليه من قبل أحد « الفدائيين » . فكان يتخذ لذلك شتى التدابير لصيانة نفسه من سهام « الاعتداء والاغتيال » . وكان يغالي في هذه التدابير مغالاة شديدة ، يوصلها أحياناً الى درجة « المانيا » والجنون . .

إنه لم يستقر في أحد القصور التي شيدها اسلافه ، نظراً لقربها

من بيوت الناس . فابتنى لنفسه قصراً جديداً على أحد التلال المنعزلة عن الأحياء ، وأحاط الطرق المؤدية الى التل المذكور ، بقصور خاصة بـ « أمنائه المخلصين » ، ومساكن خاصة بـ « صنائعه المجرّبين » ، وأبعد بذلك عن نفسه وعن قصره جميع احتمالات « الاعتداء والاغتيال » ..

ولكنه كان « أمير المؤمنين » و« خليفة المسلمين » ، علاوةً على كونه « سلطان العثمانيين » . ولذلك كان يضطر الى الخروج من قصره – أيام الجمعة – لأداء فريضة الصلاة جماعة ، في أحد الجوامع الكبيرة . وكان يصبح – من جراء ذلك – معرضاً لخطر « الاعتداء والاغتيال » مرة في الاسبوع ، خلاله ذهابه الى الجامع وايابه منه .

فرأى السلطان عبد الحميد ، ان يزيل هذا « الخطر » ايضاً من طريق «حياته الغالية » باسلوب حاسم حكيم : فشيد جامعاً جديداً ، على التل الذي يقوم فيه قصره الجديد ، فصار بذلك يستطيع الذهاب الى الجامع والعودة منه ، دون ان يضطر الى المرور بين المساكن والحارات ، ودون ان يُعرض نفسه الى خطر « الاعتداء والاغتيال » الذي كان يتوقعه على الدوام ..

انه كان يعتز بلقب « الخلافة » اكثر من اعتزازه بعرش « السلطنة » ، فكان يذهب الى الجامع المذكور ويعود منه – ايام الجمع والاعياد – بموكب يتناهى في الفخامة والجلال .

ولكنه – بقدر ما كان يخاف من الشعب خلال هذه الاحتفالات كان يحرص على توفير وسائل « التفرج عليها » لسفراء الدول الذين

يقيمون في عاصمة الخلافة ولكبار الاجانب الذين يؤمونها من حين الى حين ، ليظهر «أبهة السلطنة ،وجلال الخلافة » بأروع مظاهرها.

ولهذا السبب ، شيد قصراً خاصاً يشرف على « ممر الموكب » - بين القصر والجامع - اسماه « قصر التشريفات» وخصصه لجلوس الاجانب ، الذين يسمح لهم « بالتشرف » بمشاهدة هذه الاحتفالات الرائعة ، التي كانت تعرف باسم «مراسم السلاملك العالية » [1]

وكان « الانفلاق الهائل » الذي ذكرته آنفاً ، قد حدث خلال احد هذه الاحتفالات ، بناء على « الخطة » التي احكم وضعها احد الفوضويين البلجيكيين ، بغية القضاء على حياة السلطان عبدالحميد. كان الرجل قد استطاع الحصول على بطاقة تسمح له « بالتفرج » من قصر التشريفات . وكان قد حضر الاحتفالات عدة مرات ، ولاحظ خلالها نظام سير الموكب الملكي بكل انتباه واهتمام . وقد علم ان « بوق السلام » يدوي في الآذان حالما يخرج السلطان من الجامع ويركب العربة الملكية. وقد حسب المدة التي تمضي بين انتشار صوت البوق وبين مرور العربة من مفرق الشارع الذي تنتظر فيه عربات الزوار والمتفرجين ، وتأكد من انها ثابتة ، لا تتغير . فدبّر الأمر على هذا الاساس : استحضر عربة خاصة ، حوّل « كرسي

(١) ان منظر الموكب السلطاني ، الذي يمشي فيه عشرات من المشيرين والباشوات،ومئات من كبار الضباط - بملابسهم المزركشة ،وسيوفهم المذهبة ، واوسمتهم المرصعة - من بين صفوف عديدة من مختلف أصناف « الجنود الخاصة المتزيين بأزياء متنوعة الاشكال والألوان ... كان من أهم ما يتوق الى مشاهدته « كبار الاجانب » الذين يزورون « مقر السلطنة العثمانية والخلافة الاسلامية » في ذلك الزمان .

جلوس السائق » فيها الى « ماكينة جهنمية » – حسب تعبير ذلك الزمان – مؤلفة من مخزن مملوء بمواد متفرقعة شديدة الانفجار ، ومن آلة توقيت دقيقة تضمن انفلاق تلك المواد بعد مرور مدة معينة من تحريك زرها الخاص .

وفي اليوم الذي اختاره لتنفيذ خطته هذه ، أوصل العربة الى مقربة من طريق مرور الموكب ، ثم انتظر هناك صوت البوق الذي يعلن خروج السلطان من الجامع وركوبه العربة ؛ وحالما سمع الصوت ، حرّك الزرّ ، وتباعد عن ذلك المكان ...

وقد حصل الانفجار في الوقت المعين تماماً ، وكان انفجاراً هائلاً حطّم وهشّم عشرات من العربات والخيول ، وبعثر حطامها واشلاءها الى مسافات كبيرة ، وأدى الى جرح بضع مئات من الناس .. وموتهم . ولكن حدث حادث صغير ، كان كافياً لصيانة السلطان عبد الحميد من تأثيرات هذا الانفجار الهدام : فانه بعد ان خرج من الجامع وهمّ بركوب العربة – وبعد ان دوّى في الجو صوت « بوق السلام الملكي » الرنان – تذكر السلطان عبد الحميد « قضية » ، رأى ان يكلم شيخ الاسلام فيها ، فتأخر لذلك عن الركوب مدة من الزمن . وهذا التأخر الطارىء صار سبباً لنجاة السلطان من حبال هذه المكيدة المحكمة ، لان انفجار الماكينة الجهنمية ، قد حصل – لهذا السبب – قبل ان يصل الموكب الى منطقة تأثيرها الفعال .

ان أخبار هذه الواقعة ، قوبلت بدهشة عظيمة في كل انحاء الدولة العثمانية – بل في جميع بلاد العالم ..

وعندئذ نظم الشاعر العربي الكبير أحمد شوقي ، قصيدة رنانة هنأ بها السلطان على نجاته من شرور هذه المكيدة ...

يعتبر شوقي – في قصيدته هذه – العمل الذي قام به في ذلك اليوم « عصابة شر » من « البغاة » ، جناية ما بعدها جناية ، ويبتهج لنجاة الخليفة منها ابتهاجاً لا يفوقه ابتهاج . ويدّعي بأن العالم بأسره سُرّ بذلك سروراً عظيما ، وتقدم الى الله سبحانه وتعالى بالشكر والحمد ، حتى ان « البيت الحرام » نفسه شكر ربه لذلك ، و « جبل عرفات » نفسه اشترك في هذا الشكر ، كما ان جميع المساجد والجوامع انبرت « تستغفر الله » من هذه الجناية الفظيعة ، وتحمده على فشلها ، حتى ان ارواح الاموات – الذين ذهبوا ضحية لهذه الجناية – ايضاً صارت تدعو بطول العمر لامير المؤمنين . واما نجاته من « شرور هذه المكيدة » فلا يشك شوقي – في قصيدته هذه – بانها كانت من جراء حفظ الملائكة الذين كانوا له « من عند الاله حماة » ...

القصيدة معنونة بعنوان النجاة ، وهي طويلة ، تقع في سبعة وخمسين بيتاً ، ولست أرى داعياً الى إثباتها كلها في هذا المقام . فسأكتفي بذكر بعض الاقسام منها ، لاعطاء فكرة عامة عنها .

اليك أولا ، هذه الابيات من مطلع القصيدة :

نجاة

هنيئاً امير المؤمنين فانما
نجاتك للدين الحنيف نجاةُ

هنيئاً لطه والكتاب ، وامـــة
بقاؤك إبقـــاءٌ لهـــا وحياة .

أخذت على الاقدار عهـــداً موثقاً
فلست الذي ترقى اليـــه أذاة .

ومن يـــك في برد النبي وثوبـه
تجزه إلى أعدائـه الرميـــات .

يكاد يسير البيت شكراً لربـــه
اليك ، ويسعى هاتفـــاً عرفات .

وتستوهب الصفح المساجد خُشّعاً
وتبسط راح التوبـــة الجمعات .

وتستغفر الأرض الخصيب وما جنت
ولكن سقاها قاتلون جنـــاة .

وتُثني من الجرحى عليـك جراحهم
وتأتي من القتـلى لك الدعوات .

ضحكت من الاهوال ثم بكيتهم
بدمع جرت في اثره الرحمات .

تُشـــاب بغاليـــه وتجزى بطهره
الى البعث اشلاء لهم ورفـــات .

ومـا كنت تحييهم فكلهم لربهم ،
فما مات قوم في سبيلك مـاتوا ...

ثم دونك هذه الابيات من وسط القصيدة :

إذا زلزلت من حولك الارض رادها
وقارك حتى تسكن الجنبات.
وان خرجت نار ، فكانت جهنماً
تغذى باجساد الورى وثقات .
وترتج منها لجة ومدينة
وتصلى نواحٍ حرّها وجهات .
تمشيت في برد الخليل فخضتها
سلاماً وبرداً حولك الغمرات .
وسرت ، وملء الارض حولك ادرع
ودرعك قلب خاشع وصلاة .
ضحوكا واصناف المنايا عوابس
وقوراً وأنواع الحتوف طغاة .
يحوطك – ان خان الحماة انتباهم –
ملائك من عند الاله حماة !
وأخيراً اسمع هذه الابيات التي تنتهي بها القصيدة :
نجت امة لما نجوت ، ودوركت
بلاد ، وطالت للسرير حياة .
وصين جلال الملك ، وامتد عزه
ودام عليه الحسن والحسنات .
وأمّن في شرق البلاد وغربها
يتامى على اقوامهم وعفاة .

سلامي عن هـذا المقـــام مقصر
عليـك ســـلام الله والبركات .
(من ديوانه « الشوقيات »)

فانت ترى من هذه الابيات كلها ، ان أحمد شوقي عـبر عن ابتهاجه بنجاة امير المؤمنين تعبيراً حماسياً جدا ؛ واسترســـل في مدح السلطان عبد الحميد استرسالا اوصـله إلى اقصى درجـــات المغالاة ...

*

ومن الغريب انه عندما كان شوقي الكبير ينظم في مصر هذه القصيدة الطنانة ، ويعلن بها ابتهاجه وابتهاج العالم باسره بنجـــاة أمير المؤمنين ، على هذا المنوال ... كان شاعر تركي كبـــير في الاستانة ، هو توفيق فكرت الشهير ، ينكمش على نفسه ، وينظم قطعة شعرية رقيقة ، تندب « سوء حظ الامة بنجاة السلطان عبـد الحميد من هذه المكيدة المحكمة ...»

هذه القطعة الشعرية تحمل عنوان « لحظة تأخر واحدة»؛ وهي قطعة شعرية قصيرة ، تتألف من خمسة عشر بيتاً فقط ، ولكنهـا تدل على تفكير مرير ، وحزن عميق ، وألم دفين ...

وهذه ترجمتها ترجمة تكاد تكون حرفية ، لكثرة الكلمات العربية المستعملة فيها :

لحظة تأخر واحدة ...

ضربـة ، ودخان ... وتطايرت إلى أجواز الفضاء أشلاء من

الارجل والرؤوس والدماء والعظام ... كأن « محفل أفراح » بكامله – أو « معشراً من المتفرجين » بأسره – قد نُتف نتفاً فنثر نثراً ، باظافر خشنة ، ليد قهر جبارة ...

ايتها الضربة المبجلة ، وأيها الدخان المنتقم !... ما أنتِ ، ومن أنتِ ؟... ما هو ، ومن هو السبب لهذه الصولة ، والدافع لها ؟

وراءك ، ألف أنظار متجسسة ... وأنتِ تلوحين لها كيد غيب متخفية ، تنشر الخلاص والنجاة ...

لدويّك ثورة غيظ راعدة ، تثير شعور الحق والخلاص في كل مكان ...

ومن صدمتك ، ترتعد أوصال الاستبداد القاهرة ...

ومن اقترابك ، ترتجف أغرّ تيجان العظمة ...

إن الدهشة التي تلقيها في النفوس ، تهزّ رقاب القرون ، فتوقظ الشعوب من أعمق درجات النوم والسبات ...

أيها الصياد الجليل الشأن !... إنك لم تنصب شراكك عبثاً .. رميت ، ولكنك – وأسفاه ، بل والف أسفاه ... – لم تصب المرمى !...

لو توقف ، هنيهة واحدة ، الفلك الذي لا يعرف الاستقرار .. أو لو لم يقف هو – صاحب ذلك التاج المشؤوم ... لكان هذا العمل الذي أمسى الان شبيهاً بجناية دامية ، قد صار خيراً لم يسبق له مثيل ، منذ قرون وقرون ...

غير أن « الصدفة » – وأسفاه ! – الصدفة التي تلازم الاقوياء وتخاصم الضعفاء على الدوام ... انبرت بغتة لمحو هذا التدبير

الخارق... فأطفأت – في نفثة واحدة – هذا الامل البارق ...

فقد نقش الحظ الاعمى، ساخراً ومتهكماً، ديباجة غرور جديدة، على صفحات تاريخ الظلم والاعتساف...

لقد نجا ... فحق له أن ينتقم الان ...

ولكن، على التاريخ الذي يستطيب السفالات، ان لا ينسى هذه الحقيقة :

إن اللئيم الذي يلهو اليوم بالعبث بحياة امة باسرها ... مدين بكل ملذاته هذه ... إلى لحظة تأخر – ليس إلا...

(من ديوان اشعار توفيق فكرت : الرباب الكسير)

نرى من هذه القطعة الشعرية الرائعة، أن هذا « الشاعر الاستانبولي » نظر الى الواقعة نظرات تختلف عن نظرات «الشاعر المصري» اختلافاً تاماً : إنه أسف كل الاسف على «لحظة التأخر» التي أدت الى نجاة السلطان من الموت، واعتبر ذلك بمثابة صفحة جديدة أضيفت إلى صفحات « تاريخ الظلم والاعتساف » على يد « الحظ الاعمى » .

قارن بين هاتين القصيدتين المكتوبتين في وقت واحد، عن واقعة واحدة ؛ لاحظ موجة السرور والابتهاج التي تنبعث من القصيدة الاولى، وجو الحزن والالم الذي يغمر جميع أقسام القصيدة الثانية؛ وازن بين الأخيلة التي تتراءى للشاعر الاول وبين التي تتراءى للشاعر الثاني، أمام هذه الواقعة ... ترَ أن التباين في هذا المضمار قد وصل إلى أقصى حدود الامكان .

أما أسباب هذا التباين الشديد، فهي تظهر للعيان – بوضوح

تام – عندما نلاحظ « وجهات نظر » كل واحد من هذين الشاعرين ونبحث عن نزعاتها الفكرية والعاطفية :

كان شوقي يعيش في مصر ، وينظر الى السلطان عبد الحميد ، كـ « خليفة للمسلمين وأمير للمؤمنين » بكل معنى الكلمة . وكان لا يعرف عنه وعن أعماله شيئاً غير ما كان يشاهده بنفسه ، عندما يزور « قصر الخلافة » بمعية « فخامة الخديو » . وكان يرى تلك المدينة العظيمة من خلال « الجو الارستوقراطي » الذي يغمر القصور الكثيرة ، المنبثة على شواطىء البوسفور الجميلة ، – من خليج أميرجان ، حيث قصر الخديو ، الى تل يلديز حيث قصر السلطان ... وكان ينظر الى الاشياء والى الناس بذلك « المنظار الخاص » الذي يُضفي على كل شيء ألواناً زاهية ، ولا يظهر شيئاً من فساد الحكم ، وشقاء الشعب ، وآلام المثقفين ومظالم الاستبداد .. فكان من الطبيعي أن يبتهج شوقي بنجاة السلطان ، وأن يعتبر ذلك بمثابة نعمة من نعم الله ، وان يسارع لذلك الى تهنئة « أمير المؤمنين » بهذه النجاة المبينة ... تهنئة مشبوبة بحرارة الايمان ...

واما توفيق فكرت ، فكان يعيش في عاصمة الدولة نفسها ، بين جماعة من الاحرار التواقين الى الاصلاح . وكان يعرف كل ما يختفي وراء هذه المظاهر الفخمة من حقائق فجيعة وما يستتر تحت تلك الالقاب الضخمة من مآسٍ فظيعة ... وكان من الذين يشعرون في اعماق أنفسهم بثورة مكبوتة على استبداد عبد الحميد القاسي ، ومن الذين يلاحظون ان ذلك الاستبداد كان قد أخذ

يطغى طغياناً جنونياً، فيتسلط على العقول ويفسد الاخلاق ، بشتى الطرق والأساليب . وكان قد عبّر عن شعوره هذا أصدق التعبير وأعمقه ، في قصيدة طويلة ، عنونها بعنوان « الضباب » ، لقب فيها عاصمة السلطنة والخلافة ، بلقب « فاجرة الدهر » ... فكان من الطبيعي أن يتألم هذا الشاعر الحساس ألماً شديداً ، عندما يسمع تفاصيل الواقعة ، ويطلع على نجاة السلطان منها من جراء « لحظة تأخر واحدة » . وكان من الطبيعي أن يعتبر هذه النجاة « من مظالم المقادير » ، وأن يكتب ما كتبه في هذا الصدد بتفكير مرير ...

ولا حاجة الى القول ، ان القصيدة التي كتبها شوقي ، رُفعت في حينها الى « السدة السنية » - حسب تعبير ذلك الزمان - ونالت من لدن السلطان كل تقدير واستحسان، غير ان القطعة التي كتبها توفيق فكرت احيطت بالسرية والكتمان، فلم تنتشر الا بين طلاب الحرية الذين كانوا يتناقلونها بحذر كبير وحيطة عظيمة ، الى أن حدث الانقلاب الذي قضى على عهد الاستبداد الحميدي ، فانبرت عندئذ الألسن ، الى إنشادها وتكرارها دون خوف ولا وجل .

ومن المعلوم ان المدة التي مضت بين حدوث الانفلاق المذكور وبين اعلان الدستور وانقلاب الامور ، كانت أقل من ثلاث سنوات ...

- ٣ -

بعد ان بينت - بهذا المثال البارز الذي سردته بتفصيلات

وافية - « كيف ان انطباعات الأشخاص المختلفين عن الواقعة الواحدة قد تتباين تبايناً كبيراً في بعض الأحوال » ، عليّ أن أنتقل الى الشق الثاني من الأمر ، فأبين - بمثال بارز أيضاً - « كيف ان انطباع الشخص الواحد عن القضايا المتماثلة ، قد يختلف اختلافاً كبيراً باختلاف ظروفه الخاصة » .

ان هذا الاختلاف يحدث - بوجه خاص - عندما تتدسّ بين عناصر المحاكمات العقلية وحدودها ، بدون شعور الشخص وانتباهه ، بعض العوامل العاطفية والدوافع النفعية ، فتخرج تلك المحاكمات عن جادّة المنطق السليم ...

ولقد وقعت على أبلغ الأمثلة لذلك ، في احدى « الكلمات » التي كتبها المفكر الفرنسي المشهور آلين Alain

« آلين » هذا اسم مستعار ، اختاره الكاتب لنفسه - لنشر « كلماته الحكمية » - عوضاً عن اسمه الأصلي « اميل اوجيه » Emile Augier

وقد قرأت لهذا الكاتب المفكر في احدى المجلات التربيوية كلمات حكيمة عديدة ، تدل على روح نقد لاذعة ، ورغبة اصلاح عميقة . فأردت ان أتوسع في معرفة آرائه العامة ، فجلبت الكتب التي جمعت كلماته المختلفة . وكان بينها كتاب يحتوي على كلمات في « السياسة والاخلاق والاجتماع » . ولقد وقعت في هذا الكتاب على كلمة كان قد كتبها ونشرها عند استيلاء الطليان على طرابلس الغرب ، فبادرت الى مطالعتها - بطبيعة الحال - بكل شغف واهتمام ..

كان الرجل يستهجن هـــذا الاستيلاء كل الاستهجان ، ويضم صوته الى صوت الخطيب الشهير « جوريس » Jaures الذي كان قد هاجم الطليان بمقالات نارية رائعة ؛ ثم يرد عـــلى أقوال الذين أخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عن الطليان ، رداً مقنعاً ، ينم عن نظرات انسانية حيادية .

وكان مما كتبه آلين في هذا الصدد ، ما مآله :

« يقولون لنا : ان الدولة الايطالية مقابل الدولة العثمانية ، انما هي بمثابة الحضارة والمدنية مقابل البربرية والهمجية . فيجب علينا أن نتمنى تغلب الاولى على الثانية ، لصالح الانسانية .

« ان هذا القول ، لا يخلو من الاصابة والوجاهة : فلا شك في ان ايطاليا عندما تؤسس أنظمتها وتفرض قوانينها عـلى طرابلس الغرب ستقضي على تجارة الرقيق وعـــلى سائر الفظائع الافريقية السائدة في تلك البلاد . غير انه يجدر بالمرء أن يلاحظ انه كان في استطاعة ايطاليا أن تفعل كل ذلك دون أن تلجـــأ الى الهجوم والاستيلاء . كان في استطاعتها أن تصل الى الغاية المذكورة عن طريق مساعدة السلطات المحلية الشرعية ، دون حرب وقتال ..

« ولكن ايطاليا أرادت ان تظهر قوتها فسلكت سبيل العنف والحرب ، مما يدل دلالة قاطعة على ان قصدها من ذلك كله لم يكن تقرير النظـام والسلام في طرابلس الغرب ، بل كان بسط سيادتها على ذلك القطر » .

وقد ختم الكاتب المفكر كلمته هذه بالعبارات التالية :

« فيحق لنا أن نقول ، ان عمل ايطاليا في هـــذا الهجوم

والاستيلاء كان عملا بربريا ، لا مبرر له ابداً . ولا شك في ان هذه البربرية ستكون شائبة سوداء تلطخ تاريخ هذا القرن » ...

عندما قرأت هـــذه العبارات ، قدرت الكاتب كل التقدير ، بطبيعة الحال . وتقديري هـــذا تحول الى « الاعجاب الشديد » ، عندما وصلت الى العبارة الاخيرة التي تصرّح ان هـــذا الاستيلاء سيكون شائبة سوداء في جبين تاريخ القرن العشرين ...

غير اني تذكرت – في الوقت نفسه – ان استيلاء الفرنسيين على المغرب الاقصى سبق استيلاء الطليـــان على طرابلس الغرب بمدة غير طويلة، حتى ان ايطاليا لم تقدم على مهاجمة طرابلس الغرب الا بعـــد ان اتفقت مع فرنسا ومع سائر الدول المستعمرة ، على اساس : إطلاق يد فرنسا في مراكش ، مقابل اطلاق يد انكلترة في مصر ، وايطاليا في طرابلس الغرب ..

وعندما تذكرت ذلك كله ،ارتسم في ذهني حالاً هذا السؤال: « ترى ، ماذا قال هـذا الكاتب المفكر ، عن استيلاء فرنسا على المغرب الاقصى ؟.. »

ومن الغريب انني وجـــدت جواب هذا السؤال ، في نفس الكتاب ، بعد الكلمة التي نقلتها آنفاً ..

لأن هذا الكاتب المفكر الشهير – بعد ما أصدر على الطليان الحكم الحاسم السابق الذكر – نقل البحث والحديث الى بلاده وقومه ، فقال :

« واما نحن الفرنسيين ، في مراكش .. فما كنا نحارب لاجل الاستيلاء ، بل لاجل بسط أجنحة السلام ، على تلك البلاد » ..

ثم أخذ يؤيد قوله هذا بهذه الملاحظات والمدّعيات :

« اننا كنا نحارب هناك في سبيل دين البلاد ، وسلطات البلاد. كنا نعمل عمل الضباط ، لا عمل المحاربين . كنا نتفق مع كل المسلمين ، على جميع المقاتلين » ..

ولكن الجيوش الفرنسية كانت لا تزال تحـــارب في المغرب الاقصى ؛ وكانت لا تزال تستولي على أقسامه المختلفة مرحلة بعـد مرحلة ! فما كان في مقدور «المفكر الشهير» أن ينكر هذه الحقائق الراهنة . غير ان حرصه الشديد على تبرئة ذمة بلاده من « التهمة » التي وجهها هو الى ايطاليا ، حمله على اختلاق المعاذير لفرنسا — واختراع الفروق بين عملها وعمل ايطاليـــا — ولو عن طريق المغالطات الصارخة :

« نعم ، اننا كنا نسير نحو الاستيلاء . ولكن ذلك كان بالرغم منا ، دون حماس وهيـــاج .. ان ما كنا نرمي اليه في المغرب الاقصى ، لم يكن سلطة لنا ، بل كان نظاماً وأمناً وسلاماً لكل الناس ..

« ان هذا الاستيلاء ، كان مما لا يمكن تجنبه بوجه من الوجوه . وقد جرى تحت تأثير هذه الفكرة ، توصلاً الى هذه الغاية وحدها..

« ان كل ما عملنـاه هناك كان من الامور الضرورية ، التي ما كان يجوز أن لا تُعمل أبداً » ...

وبعد تسطير هذه المزاعم التي حاول الكاتب المفكر أن يخدع بها نفسه أولا ، ثم قراءه ثانياً ... لم يتورع عن العودة الى ذكر ايطاليا ، وانهى كلمته بهذه العبارة :

« ولكن ذلك لا يمكن ان يقال عن ايطاليا ... »

وقد تكلم « آلين » عن قضيـــة مراكش في محـــل آخر ، وبوسيلة اخرى ايضاً فقال :

« لو كان المراكشيون عادلين فيما بينهم ، منتظمين في أعمالهم ، قادرين على الاعمال الصناعية ، متعودين دفع الضرائب ومراقبـــة النفقات العامة .. لكانوا أقوياء مثلنا ؛ ولما احتجنا نحن – عندئذ – الى حمل السلاح ضدهم ؛ بل لذهبنا الى بلادهم لنتاجر معهم ، نشتري منهم ونبيعهم ، حسب ما تقتضيه منافعنا المتقابلة . ولكن الآن ، نحن مضطرون الى الاستيلاء على تلك البلاد ، ومدفوعون نحو هذا الاستيلاء بحكم الوقائع وسوقها ..

« وكل شيء يدل على ان تهدئة تلك العشائر المقاتلة ، مما لايمكن أن يتم بوسائل اخرى . ان العمل الذي نقوم به نحن في تلك البلاد ، لم يكن عملا حربياً ، بل كان عملا انضباطياً .. ليس الا » ..

لاحظ ، كيف تغيرت مقاييس الرجل ومحاكماته ، دفعـــة واحدة ، تغيراً غريباً ، حالما انتقلت أبحاثه وكلماته من « استيلاء ايطاليا على طرابلس الغرب » الى « استيلاء فرنسا عـلى المغرب الاقصى » ؟ !

أمامنا حادثتان متشابهتان تشابهاً تاماً ، تحـــدثان في وقتين متقاربين جداً . وكاتبنـــا الفرنسي المفكر يقول عن احداهما انها « شائبة سوداء في جبين حضارة القرن العشرين » ، في حين انه يخلع على الثانية رداء « خدمة الانسانية » !

استيلاءان واستعماران موجهان الى قطرين عربيـين .. وبينما

يقول هذا الكاتب العبقري ، عن احدهما « انه عمل بربري لامبرر له مطلقاً » ، يقول عن الاخر « انه عمل انساني ، يخدم الحضارة » !

يُقدّر هـــذا الكاتب الافرنسي الحقيقة الراهنة حق قدرها ، ويسلم ببربرية الاعتـداء والاستيلاء ، عندما يتعلق الامر بايطاليا ؛ ولكنه يغض البصر عنها ، ويختلق شتى المبررات لها ، عندما يتعلق الامر بفرنسا !... ان محاكماته العقلية تبقى سليمة ، فلا تخرج عن جادة المنطق والصواب ، عندما يتكلم عن قضية تتعلق ببلاد أجنبية عنه ؛ ولكن محاكماته هذه تفقد سلامتها ، فتخرج عن دائرة المنطق والصواب ، حالما تنتقل أبحاثه الى قضية تتعلق بالبلاد التي ينتمي اليها !...

- ٤ -

ولا تحسبْ ان هذه الحالة العقلية ، وهذه النزعة الفكرية ، من الامور الشاذة التي لا يشاهد أمثالها الا نادراً . بل ثق بان ذلك من الامور الاعتيادية التي تسود النفوس في كل زمان ومكان ..

ان العواطف تلعب دوراً هاماً في المحاكمات ، حتى عند المفكرين والعلماء ، لا سيما في القضايا التي تتصل بالسياسة الوطنية . ولا يشذ عن هـذه القاعدة الا عدد قليل من المفكرين ، أستطيع أن أذكر على رأسهم الفيلسوف الانكليزي المشهور « هربرت سبنسر » .

Herbert Spencer

ان هذا المفكر العظيم ، قد استطاع أن يتسامى - في كتاباته - عن اعتبارات « السياسة الوطنية الضيقة » ، وأن يحافظ على حياده الفكري حتى أمام قضايا « السياسة الاستعمارية » . وقد ذكر - في « مقدمـــة علم الاجتماع » التي نشرها - الشيء الكثير عن فظائع

الاستعمار . ولم يستثن بلاده من تبعات هذه الفظائع مطلقاً .

وكان مما قاله في هذه المقدمة :

عندما نشاهد شعباً من الشعوب المحكومة يجاهد في سبيل التحرر والاستعباد ، نُعجب به إعجاباً شديداً ، ونصفق لاستقلاله تصفيقاً حاراً . غير ان ذلك الشعب ، اذا كان من الشعوب المحكومة لنا نحن ، عندئذ يثور في نفوسنا نحوه غيظ شديد عوضاً عن الاعجاب .

نحن نصفق لكثير من الوقائع الاستقلالية ، ومع ذلك لا نجد في المحاولات التي يقوم بها المنود للتخلص من نيرنا شيئاً غير « الخيانة المحضة » ، كما اننا لا نعذر أبداً الجهود التي يبذلها الايرلانديون لتأسيس قومية مستقلة عنا . ونتجاهل تجاهلاً مطلقاً ، ان جميع هذه الوقائع تحدث لسبب واحد ، وتهدف الى غاية واحدة ، فالاحكام التي نصدرها عنها يجب أن تكون متماثلة تمام التماثل .

نحن نغتاظ من أعمال الظلم والاعتساف ، عندما تصدر عن غيرنا ولكننا نستحسنها ، ونصفق لها ، اذا ماصدرت عن موظفينا . . .

نحن ننظر إلى الاعمال المتماثلة بنظر الخير أو الشر ، حسب كونها موجهة أو غير موجهة الينا . . »

ولا يكتفي هربرت سبنسر بسرد هذه النزعات النفسية سرداً عاماً ، بل يوضحها ببعض الامثلة أيضاً :

« كلنا نذكر موجة الاستهجان والغيظ التي غمرت النفوس في جميع أنحاء انكلترة ، عندما انتشرت المظالم التي ارتكبها الفرنسيون في الجزائر ، لأخضاع العرب الذين لم يستسلموا لهم ، بل حاولوا

مقاومتهم . لا شك في أن تلك المظالم كانت فظيعة جداً، ولا شك في أن الغيظ الذى تأجج في نفوسنا من جراء ذلك كان محقاً تماماً. ولكنه ، يجب علينا أن نلاحظ – في الوقت نفسه – باننـــا نحن أيضاً ارتكبنا من المظالم ما لا يقل فظاعة عن ذلك في مستعمراتنا المختلفة ، ولاسيما في الهند ... »

يذكر هربرت سبنسر كثيراً من المظالم التي ارتكبها الاوربيون في أميركا ؛ ويصرح بان الانكليز اشتركوا أيضاً في تلك المظالم ، ثم يرد على من يزعم بان « ذلك قد حدث في زمان مضى وانقضى » بقوله : « إنني أستطيع أن أذكر لهم كثيراً من المظالم المخجلة التي لا تزال ترتكب في مستعمراتنا » ،ويذكر فعلاً أمثلة عديدة عليها ...

غير أن أهم الآراء التي أبداها هربرت سبنسر في هذا المضمار ، تتجلى بأجلى أشكالها في العبارات التالية :

« إننا نستطيع أن نميز الحق من الباطل بسهولة في الخلافات التي تحدث بين الامم ، عندما يكون الطرفان غريبين عنا. ولكننا نفقد القدرة على التمييز، ونصبح – كالعميان – عاجزين عن رؤية أنوار الحقيقة ، إذا ما كنا من ذوي العلاقة في القضيـة ، أو من العاملين والمؤثرين فيها ... »

*

هذا ، ويجب أن لا ننسى ان أمثال هذا المفكر المحايد الحر ، قليلون وقليلون جداً .

واما الكثرة الساحقة من الكتاب والمفكرين فانهم يزنون

الامور بميزانين عقليين متخالفين ، ويقدرون الأعمـــال بمقياسين أخلاقيين متباينين ... ويخصصون أحـــد هذين الميزانين وهذين المقياسين للامور المتعلقة ببلادهم وبمواطنيهم ، ويستعملون الميزان الآخر ، والمقياس الآخر لدرس سائر القضايا ، وتقدير سائر الاعمال ...

ولهذا السبب ، يجب علينا أن لا نخدع بكل ما يكتبه الاوروبيون عن القضايا التي تتعلق بالحوادث السياسية وتتصـــل بالامور القومية ، حتى ولو كانوا من العلماء والمفكرين .

ويجب علينا - بوجه خاص - أن لا نعتمد كثـــيراً على ما يكتبه « أحد الطرفين » في الامور التاريخية والسياسية ، بل يجب علينا أن نتوسع ونتعمق في درس أمثال هذه الامور ، وأن نقابل ونوازن ما يكتبه « أحد الطرفين » من ذوي العلاقة ، في كل واقعة وكل قضية ، بما يكتبه « الطرف الآخر » من جهـة ، وبما يكتبه غير ذوي العلاقة ، من جهة اخرى .

فاننا بهذه الصورة ، وبهذه الصورة وحدها ، نستطيع أن نتوصل الى معرفة الحقيقة ، في القضايا السياسية والمسائل التاريخية ..

جامعة الدول العربية

•

ان جامعة الدول العربية التي تشكلت وتأسست بصورة رسمية ، قبل عامين ، وليدة « احتياج حقيقي » ، اخذ يشعر به ويعمل لمعالجته رجال الفكر والسياسة ، في مختلف الاقطار العربية ، منذ اعوام عديدة .

في الواقع ، ان كل واحدة من الدول العربية التي وقّعت على ميثاق هذه الجامعة كانت قد بدأت تتكون تحت شروط وظروف خاصة بها ، تختلف اختلافاً كبيراً عن الشروط والظروف التي احاطت بتكوين غيرها . وذلك من جراء تنوع وتباين سياسات الدول الاستعمارية التي كانت قد بسطت حكمها او نفوذها على كل قطر من الاقطار العربية على حدة .

ولهذا السبب أخذت الامور تسير في كل واحدة من الدول العربية في اتجاه خاص ، فصارت هذه الدول تتباعد بعضها عن بعض من حيث التشكيلات الادارية والقضائية ، والاتجاهات التعليمية

والتثقيفية ، والتنظيمات الاقتصادية والمالية..

والواقع ان اهالي هذه الاقطار لم يستسلموا الى الحكم الاجنبي استسلاماً تاماً ، بل قاموا يثورون عليه ، ويسعون للتخلص منه ، بوسائل مختلفة وفي فترات متفاوتة. غير ان هذه الحركات التحررية ايضاً اخذت - في بادىء الامر - في كل قطر من الاقطار العربية، شكلاً خاصاً بذلك القطر ، يختلف عن اساليب النضال التي سادت غيره من الاقطار ، بطبيعة الحال .

ولهذا السبب ، صار « التباعد » الذي ذكرناه آنفـــاً يزداد ويشتد سنة بعد سنة ، ويؤدي الى تباين عظيم في الاوضاع الحكومية وفي جميع الشؤون العامة التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتلك الاوضاع.

ولكن هذا التباعد كان قد نتج من تأثير العوامل الخارجيـة المسيطرة على مختلف الاقطار العربية ، كما ذكرنا ذلك آنفاً ، وكان مخالفاً للروابط المعنوية التي تربط هذه الاقطار بعضـــها ببعض ، باواصر متينة من « القومية الطبيعية » الكامنة في وحـــدة اللغة والتاريخ .

فكان من الطبيعي ان تعمل هذه القوى المعنوية أيضاً عملها الفعال في هذا المضمار ، وأن تحدث من الحركات الشعبية والتيارات القومية ، ما يعاكس العوامل الخارجيـة المذكورة ، وما يولد ، بجانب تيار « التباعد الحكومي الرسمي » ، تيارَ « تقارب شعبي قومي » ، يزداد قوة واتساعاً على مرّ السنين .

لقد بدأت هذه الحركات التقاربية ، مستقلة عن أعمال الحكومات ولكنها أخذت بعدئذ تنال منها - شيئاً فشيئاً - التحبيذ ، فالتأييد

فالتشجيع ، فالمساعدة ، وذلك حسب تقدّم الحكومات المذكورة في سبيل الاستقلال الاداري والسياسي ، وتشبعها بالروح القومية والوطنية ؛ وصار نطاق هذا التأييد الرسمي وهذه المساعدة الحكومية ، يتوسع تدريجياً ، وينتقل من دولة الى دولة ، حتى شمل جميع الدول العربية بلا استثناء .

إن قوافل الطلاب والمدرسين التي أخذت تسير بين مختلف الاقطار العربية والمؤتمرات والمهرجانات التي صارت تُعقد وتقام في عواصم تلك الاقطار ، كانت من آثار هذه الحركات القومية من جهة ، ومن عواملها الفعالة من جهة اخرى .

ان محنة فلسطين قد عملت عملاً هاماً في هذا السبيل ، لانها أعطت برهاناً ملموساً على وحدة مقررات البلاد العربية ، على الرغم من تعدد دولها .

والجهود التي استهدفت معالجة هذه المحنة ايضاً بدأت تتجلى في بادىء الامر على شكل حركات شعبية قومية ، بواسطة هيئات وجمعيات مجردة عن كل صبغة رسمية ومحرومة من كل مساعدة حكومية . غير ان هذه الاحوال والاوضاع تبدلت بعد ذلك تدريجياً ، فاخذت الحكومات العربية المختلفة تساعد هذه الجهود والحركات شيئاً فشيئاً ، اولاً بصورة سرية ثم بصورة علنية ، الى ان صارت تتبارى في اظهار العطف عليها والعمل لمساعدتها بصورة فعلية .

واخيراً ، فان وقائع الحرب العالمية الاخيرة ، وما صاحبها من المحن وما أعقبها من الاحداث .. في مختلف البلاد العربية ..

اكثرت من الدلائل المادية والبراهين القطعية على « وحدة المصالح والمقدرات » التي تربط هذه البلاد بعضها ببعض . وساعدت بذلك على إشاعة فكرة التضامن ، وتقوية نزعة الاتحاد بين جميع الدول العربية .

وقد تهيأت بكل ذلك ، جميع الاسباب الداعية الى تنظيم هذه النزعات والحركات القومية التي انتشرت على هـذا المنوال ، اولا في البيئات الشعبية ، ثم في المحافل الحكومية في جميع البلاد العربية .

*

ان جامعة الدول العربية ، ما هي الا « الجهاز الرسمي » الذي وُجد لتحقيق هذا التنظيم القومي العام ..

فهي بهذا الاعتبار ، بمثابة « منظمة طبيعية » تكونت بتأثير عوامل قومية غزيرة المنافع ، عميقة الجذور .

وبتعبير آخر انها « عضوية حيةنامية » تمخضت منها مشيمة العالم العربي تمخضاً طويلاً .. وقد ولدت هذه العضوية ولادة طبيعية ، زودتها بجميع شروط النمو والحياة .

*

إنني وصفت هذه المنظمة بـ «الطبيعية» وشبهتها بـ « العضويات الحية » . وقد فعلت ذلك ، تمييزاً لها عن « المنظمات الاصطناعية » التي توجدها «الاتفاقات والتدبيرات السياسية » مستفيدةً من بعض العوامل الطارئة ، لتحقيق بعض الاغراض العارضة . إن امثال هذه المنظمات تعيش ما عاشت تلك العوامل الطارئة وتزول بزوالها ،

دون أن تخلف آثاراً حية .

ان جامعة الدول العربية لاتشبه تلك المنظمات بوجه من الوجوه .

ان مقارنة بسيطة بينها وبين احدى المنظمات الاصطناعية ، تكفي للبرهنة على ذلك بكل وضوح وجلاء :

من المعلوم ان الجمهورية التركية ، سعت سعياً حثيثاً لتكوين منظمة سياسية تجمع بينها وبين الدول البلقانية . وقد نجحت في مسعاها مدة من الزمن ، إذ توصلت الى تكوين « الحلف البلقاني » المعروف . وقد عقدت الدول الداخلة في هذا الحلف ، عدة مؤتمرات دورية ، تبودلت خلالها الخطب الرنانة ، وألفت اللجان الكثيرة ، واتخذت المقررات الهامة ، غير ان هذا الحلف لم يعمر طويلا ، ودخل في خبر كان . والآن ، انشطر اعضاء هذا الحلف الى معسكرين متنابذين ، واخذوا يتخاصمون اشد اختصام .

وذلك لان هذا الحلف كان يضم دولاً مختلفة ومتخالفة من حيث اللغة والتاريخ والنزعات القومية ، والمنافع الاساسية .. ولم تتحالف هذه الدول بعضها مع بعض الا بتأثير بعض الظروف السياسية التي كانت طرأت على العلاقات الدولية ابان عقد الحلف المذكور .

فكان من الطبيعي ان ينفرط عقد هذه الدول المتحالفة ، حالما تتغير تلك الظروف السياسية ، وكان من الطبيعي ان تسارع – بعد ذلك – كل واحدة منها الى اعادة النظر في موقفها وسياستها ، على ضوء الاحوال العالمية الجديدة .

ولا حاجة الى القول ، إن احوال جامعة الدول العربية تختلف عن كل ذلك اختلافاً جوهرياً :

لأن الروابط التي تربط الدول العربية بعضها ببعض ، ليست من نوع الظروف الطارئة او المنافع العارضة ، بل هي من نوع العوامل الاساسية الدائمة التي تتصل بمشاعر شعوبها ، وتنبثق من اعماق نفوسها . فان هذه الروابط تتولد – من حيث الاساس – من « وحدة اللغة والتاريخ » ، وتتقوى – بوجه خاص – بكثير من العوامل التي تنضم الى هذه الوحدة وتدعمها ، مثل « الاتصال الجغرافي » ، و « الترابط الاقتصادي » ، و « التجاوب العاطفي ». ومن المعلوم ان « التجاوب العاطفي » ينجم عن « مماثلة المحن والآلام ، والمشاكل والمخاطر والأماني والآمال » ... في الماضي والحال والاستقبال .

فنستطيع ان نؤكد ان جامعة الدول العربية لم تتألف بتأثير ظروف سياسية طارئة . بل – بعكس ذلك – انها تكونت تحت تأثير عوامل قومية عميقة وتيارات طبيعية دائمة ، فلا شك في ان هذه العوامل التي تضافرت على تكوينها قبل بضعة اعوام ، ستستمر على تغذيتها ، وتقويتها وتنميتها على الدوام .

ولهذا السبب – ولهذه الملاحظات – قلت واقول : ان جامعة الدول العربية منظمة طبيعية قوية ، وعضوية حية نامية . وأرى لزاماً عليّ ان اقول – في الوقت نفسه – إن هذه المنظمة لا تزال في بدء تكوينها ، وهذه العضوية لا تزال في مقتبل عمرها ، فلا يزال أمام جامعة الدول العربية مجالات واسعة من النمو والتطور والتقدم .

ان هذه الجامعة قد تتعرض ، في المستقبل ، الى بعض الازمات

المتأتية من كيد الاعداء والموتورين ، وقد تصاب ببعض الخدوش والجروح ..

غير اني اعتقد ان في روح العروبة التي تغـذيها وتنميها على الدوام ، من القوة والمناعة ما يكفل لها التغلب على كل ما يمكن ان يعترضها من الازمات والعقبات .

لا داعي لليأس...

•

كان الاستاذ احمد امين قد نشر في العدد ٤١٥ من مجلة الثقافة التي تصدر بمصر القاهرة — في ١٠ ديسمبر ١٩٤٠ — مقالا تحت عنوان « مأساة » ذكر فيه كتاباً تلقاه من صديق سوري — عن بعض الحوادث التي حدثت في سورية اذ ذاك — ثم قال :

لقد قرأت هذا الكتاب وقرأته فطفر الدمع من عيني حزناً على حالة هذه البلاد .

ليست هذه الحالة — يا صديقي — هي حالة سوريا وحدها ، بل حالة الشرق كله ، وعندنا مثل ما عندكم .

عندنا مثل ما عندكم... لا يستطيع مصلح جادّ أن يتم إصلاحه حتى تتألب عليه الجهات المأجورة والمضللة وذوات الغرض فترميه بأشنع التهم حتى يضطر إلى الفرار من الميدان تاركاً الدار تنعى من بناها .

عندنا مثل ما عندكم... تتحكم فينا شهوة الحكم، وتقضي على كل منطق وعقل وخلق ، ولا تتورع الاحزاب ان تحارب بالباطل

فتقلب الصحيح فاسداً ، والفاسد صحيحاً ، ولا تخجل من أن تسمي الأبيض أسود والأسود أبيض ، بل لا تخجل من ان تسمي الشيء الواحد أبيض وأسود في زمنين لغرضين ، ولا تتعظ بما يجري في الامم الحية من تحكيم المصلحة القومية وتقديمها على المصلحة الحزبية وتفاهم رؤساء الاحزاب إذا حزب الامر وعظم الخطب .

عندنا مثل ما عندكم ... تلعب الاحزاب بالطلبة ويتخذونهم أداة لقلب حكومة ، وقيام حكومة ، ولا يرعون الله في حق ولا علم ولا خلق ، ويسفكون دمهم لمصلحتهم ، ويضحون بعلمهم لاهوائهم ، لا فرق في ذلك بين حزب وحزب ، وعهد وعهد .

عندنا مثل ما عندكم ... تلعب التيارات الخفية باسم الوطنية ، فمن يخشى زوال نفوذه التجاري يحارب الاستقلال ، ومن يخشى على نفوذه السياسي يؤيد الاحتلال . والبلاد تصاب بالانحلال في دينها ، في خلقها ، في اقتصادياتها ، في عقلياتها ، حتى لا وحدة في أي شيء ، والحكومات تشكو مُرّ الشكوى من شعوبها ، والشعوب تشكو مُرّ الشكوى من حكوماتها ، ولا تضامن ولا تعاون ، وإنما الانحلال أثر انحلال .

عندنا مثل ما عندكم ... رجال دين يطلبون الدنيا ، ثم لا يهيئون أنفسهم للدنيا كما تتطلب الدنيا .

عندنا مثل ما عندكم ... وزارة تأتي فتبدأ في الاصلاح فلا تلبث أن تذهب وتأتي وزارة فتهدم ما بنت وتبدأ من جديد ، ولا نزال في بناء وهدم وبناء وهدم ، حتى لا يتم بناء ولو كان كوخاً .

عندنا - يا صديقي - مثل ما عندكم في كل شيء ، ففي كل

حارة مأتم ، وفي كل شارع جنازة . واعذرني إذا يئست فقلت إن الشرق لا يصلح إلا بمعجزة .

أحمد أمين

وعندما اطلع « ابو خلدون » على هذا المقال ، أرسل الى الاستاذ احمد امين رداً تحت عنوان « لا داعي لليأس » وهذا هو نص الرد المذكور :

إلى الأستاذ أحمد أمين بك .

لقد قرأت المقال الذي نشرتموه في الثقافة ، تحت عنوان : « مأساة » .

وبعد الشكر على العاطفة الاخوية التي أبرزتموها نحوي أرى من واجبي أن أبدي بعض الملاحظات على روح التشاؤم الذي أظهرتموه فيه .

فانكم بعد أن وصفتم - لمكاتبكم السوري - آثار الأنانية المستحوذة على النفوس - في مصر كما في سورية - وصفاً مؤثراً ، ختمتم المقال بالكلمات التالية :

«واعذرني إذا يئست، وقلت : إن الشرق لا يصلح إلا بمعجزة»

وأنا بدوري لأرجو أن تعذروني إذا خالفتكم في هذا المضمار ، فقلت لكم بلا تردد : كلا ، أيها الاستاذ ، أنا لا أرى أي مبرر لليأس من الصلاح .

لانني لا أزال أؤمن ايماناً راسخاً ، بان سورية ومصر وسائر البلاد العربية سائرة نحو الصلاح، بالرغم من جميع الازمات الاخلاقية والاجتماعية والسياسية التي تنتابها في الحالة الحاضرة ، وبالرغم من جميع العقبات والمهاوي التي ستعتري طريقها في مستقبل الأيام .

ولا أزال أؤمن إيماناً راسخاً بان الامة العربية ستصل إلى المكانة التي تصبو اليها ، بفعل طبيعتها ، وبجهود أبنائها المخلصين ، دون أن تحتاج إلى معجزة من المعجزات .

إن المساوىء الأخلاقية والنواقص الاجتماعية التي ذكرتموها .. إني أعرفها حق المعرفة ، وأشعر بمخاطرها أعمق الشعور . فقد أكسبتني ظروف حياتي الفعالة خبرة واسعة بها ، وأطلعتني على الكثير من خباياها .

إني أعرف أن داء الانانية متفشٍ في جميع الاقطار العربية ، والتضامن في سبيل الخير العام يكاد يكون مجهولاً فيها . ولا أجهل أن هذه الانانية الطاغية تكوّن تربة خصبة جداً لتغذية الدسائس والمؤامرات ، التي كثيراً ما تضحي بالمصالح العامة على مذبح الأغراض الشخصية .

كما أعرف ان النزعة القومية والوطنية ، لم تكتسب بعد – في أي قطر من الاقطار العربية – القوة الكافية لكبح جماح الأهواء والانانيات ، ولم تتجه بعدُ الاتجاهَ اللازم للحيلولة دون نجاح الدسائس والمؤامرات .

وأعرف أن الأغراض الشخصية كثيراً ما تتقنع بقناع خداع من المظاهر الوطنية أو الدينية ، وتصبح بذلك أشد ضرراً على المصالح القومية .

إني أعرف كل ذلك .

ومعرفتي بكل ذلك ، لم تكن من نوع المعارف النظرية التي تتكون من التفكير المجرد ؛ بل هي من نوع المعارف العملية ، التي

تنبثق من دروس الحياة الحقيقية .

لأنني قضيت شطراً كبيراً من حياتي في « العمل » بين ضروب من هذه الأنانيات، وألوان من هذه الدسائس؛ وكثيراً ما عرضت نفسي – بطبيعة الحال – إلى صدمات تلك الانانيـــات ، وسهام تلك الدسائس .

ولا أنكر أن هذه الصدمات وتلك السهام كانت عنيفة ومؤلمة جداً في بعض الأحيان حتى انها كانت أخـذت عدة مرات شكل مصائب ونكبات . ولا أكتم أن آثار البعض من تلك الصدمات ، لا تزال تثقل كاهلي منذ عدة سنوات .

ومع كل ذلك... أؤكد لكم كل التأكيد ، بانني لم أرَ في هذه الامور والأحوال كلها ما يستوجب اليـأس أبداً ؛ ولم أستسلم من جرائها إلى التشاؤم أو القنوط في يوم من الايام .

ذلك لانني اعتقدت – ولا أزال أعتقد – ان هذه الاختلالات الاخلاقية والاجتماعية ، التي نتألم ونشكو منها ، لا تخرج عن نطاق الازمات التي يجب أن تسمى « شبه طبيعية » ؛ لأنهـــا من نوع الاختلالات الجسمانية والنفسانية التي تحدث عادة في بعض الأدوار من الحياة ، مثل الحميات والاختلالات التي ترافق الحمل والولادة والتسنن والبلوغ .

إن انتقال الشعوب والبلاد من الحكم الاجنبي إلى الحكم الوطني ، لا يمكن أن يتم بدون إحداث أزمات في نفوس الناس، واختلالات في الاوضاع الاجتماعية ، لأن الحكم الأجنبي يترك آثاراً سيئة ، ويولد اعتيادات رديئة في نفوس المستسلمين له من ناحيـة ،

ونفوس الثائرين عليه من ناحية أخرى . وهذه الآثار والاعتيادات تكون عميقة وراسخة ، بنسبة طول أمد الحكم الاجنبي من جهة وشدة الكفاح الوطني من جهة أخرى .

أنا لا أريد أن أتوسع في هذا المقام في تحليل هـــذه الآثار ، ووصف هذه الاعتيادات . ولكني أقول انها لا يمكن ان تزول بمجرد زوال الحكم الاجنبي ، وانتهاء عهد الكفاح ضد ذلك الحكم ، بل ان ذلك يتطلب كفاحاً من نوع جديد تحت شروط جديدة .

وهذا الكفاح الداخلي ، الذي يجب ان يقوم ضـد الاوضاع الراهنة والعادات الراسخة ، لا يقل صعوبة عن الكفـــاح الذي يقوم ضد السلطات الاجنبية ، بل ربما كان أشد صعوبة منه : لأنه يقترن عادة بتبلبل في الافكار والآراء ، وتخالف في المنـــازع والاتجاهات ، وتنازع في الخطط والمناهج ... كل ذلك بالاضافة الى التنافس على الحكم أو على الصيت والجاه .

ومن الطبيعي ان هذه العوامل كلها تحدث أزمات ومشكلات كثيرة ، مما لا يمكن التغلب عليها إلا بعـــد مرور مدة من الزمن كافية لإحداث « تخمر نفسي واجتماعي » خاص .

وأما موقف المفكرين والعاملين تجاه هذه الازمات والمشكلات فيجب ان يكون مماثلا لموقف الطبيب تجاه المرأة التي تتلوى بآلام الحمل أو الوضع ، وتجاه الطفل الذي يلتهب بحميات التسنن ، وتجاه المراهقة التي تقترب من طور البلوغ ... موقف تيقظ وتدبر دون قنوط ، موقف عمل ومعالجة دون قلق .

هذه هي زبدة عقيدتي الاجتماعية – وقولوا إذا شئتم : عقيدتي

السياسية – في الأزمات المختلفة التي تجتازها البلاد العربيـة ، في الحالة الحاضرة .

*

إن هذه العقيدة ، قد تكونت لديّ منذ مدة طويلة ، بألهام التاريخ ووحيه .

فان كل ما أعرفه عن التاريخ البعيد والقريب والأقرب ... التاريخ البعيد الذي اطلعت عليه من قراءة الكتب ، والتـاريخ القريب الذي تتبعت سيره منذ بداية حيـاتي الفكرية ، والتاريخ الأقرب الذي اشتركت فيه خلال حياتي العملية ... وخلاصـة القول : كل ما أعرفه عن التاريخ بجميع أنواعه واقسامه وأدواره – يشهد على صحة ما أقول ، ويقوي اعتقادي في هذه القضية .

ألقوا نظرات دقيقة على صفحات تواريخ الدول الحديثـة التي انفصلت عن الدولة العثمانية ، منذ أوائل القرن الماضي ، من الدولة اليونانية إلى البلغارية فاليوغوسلافية ... تروا أن جميعها اجتازت أزمات كثيرة ، لا تقل خطورة عن الأزمات التي نحن نتألم منهـا الآن . كلها ذاقت مرارة القلاقـل والاضطرابات ؛ كلها اصيبت بطغيان الأنانيات ، ومنيت ببلبلة الاتجاهات ؛ كلها تعرضت إلى ألوان من الدسائس والمؤامرات .

قد يقال : إن زماننا هذا يختلف عن زمان نهوض تلك الأمم ونشوء تلك الدول اختلافاً كبيراً ؛ لأن الزمان الذي نعيش فيـه الآن ، هو زمان سرعة البرق ؛ والدور الذي نجتازه الآن هو دور إطلاق المدافع الصاروخية واستغلال الطاقات الذرية .

ولكني أقول -مقابل ذلك- إن امكانياتنا نحن أوسع بكثير من إمكانيات تلك الأمم ، وتاريخنا نحن أطول وأسمى من تاريخ هؤلاء .

ثم أزيد على ذلك ، فأقول : إن التخمر النفسي والاجتماعي الذي أشرت اليه آنفاً قد بدأ منذ مدة غير قليلة من الزمن ، وقد تقدم كثيراً . وأنا لا أشك بان نتائجه ستظهر إلى العيان قريباً .

إن أمثال هذه التخمرات النفسية والاجتماعية تبقى -بوجه عام- خفية على معظم أنظار المشاهدين، وظهور نتائجها الى العيان يكون مفاجأة بالنسبة الى أكثر المعاصرين .

اني أستطيع أن أذكر كثيراً من الوقائع التاريخية التي توضح رأيي في هذا المضمار، وتؤيده تأييداً تاماً .

هاكم مثالا من تاريخ ايرلاندا :

لقد قرأت ما كان كتبه الجغرافي الشهير « أليزه ركلوس » عن ايرلاندا والايرلانديين ، في احد مجلدات كتابه الضخم -- الذي نشره في العقد التاسع من القرن الأخير : يسترسل المؤلف في وصف الأنانية المستحوذة على نفوس الايرلانديين، ويؤيد قوله هذا بذكر كلمة كانت تسير مسرى الأمثال بين الانكليز :

« إذا أردتم أن تشووا ايرلانديا واحداً ، فوضعتموه على السفود ، وجدتم على الفور عشرات من بني جلدته يتطوعون لتدوير ذلك السفود فوق النار »

ومن المعلوم أن الايرلانديين أدهشوا العالم بروح التضحية والتضامن الخارق الذي أظهروه في حركة الـ « شين فين » ، وذلك

قبل أن يمضي على تاريخ هذه الكتابة ربع قرن !

وها كم مثالا آخر من تاريخ المانيا :

لقد قرأت في احد مجلدات « قاموس المحاورات » فقرة مقتبسة من مقالة كانت نشرتها جريدة «التايمس» اللندنية ، عن المانيا ، عقب مؤتمر فرانكفورت . يصف محرر المقالة البلبلة التي حدثت في المؤتمر المذكور ، ثم يقول :

«إن هؤلاء القوم لا يزالون في حاجة الى من يذكرهم على الدوام، بانهم — قبل كل شيء — ألمان » . وبعد ذلك يشير الى السياسة التي سارت عليها الدول إزاء ألمانيا في مؤتمر فينا ، ثم يختم المقالة بهذه الكلمات : يظهر ان هؤلاء فقدوا حتى قابلية الدفاع عن أنفسهم ».

هذا ، والمدة التي مضت بين انتشار هذه المقالة في جريدة التايمس ، وبين إعلان وحدة المانيا — بعد انتصارات « سادوفا وسه دان » كانت تقل عن عقدين من السنين !

وها كم مثالاً آخر من تاريخ الشرق القريب ، كنت قد شاهدته بنفسي خلال شبابي :

توليت — في أواخر عهد عبدا لحميد — ادارة احد الاقضية — التي اصبحت الآن جزءاً من الدولة البلغارية ، وبذلت جهوداً كبيرة لدرس أحوال القضاء وجمعت دلائل قاطعة على سوء سلوك بعض الموظفين ، وقدمت الى الوالي مشروع اصلاح عام ، يتضمن فيما يتضمنه من الامور « فصل وتأديب هؤلاء المرتشين». وبعد بعض المخابرات ، رأيت من الضروري ان اذهب الى مركز الولاية ، لأشرح اقتراحاتي وأؤيد طلباتي ، باحاديث شفهية . فدخلت على

الوالي ، وبدأت أسرد عليه بتفصيل وحماس « الدلائل القاطعة التي حصلت عليها عن ارتشاء هذا ، وسوء سلوك ذاك .. ولكني دهشت عندما رأيت الوالي يقابل ايضاحاتي بهذه الكلمات : «اعرف يا ابني ، أعرف أن هنا أيضاً – في مركز الولاية أيضا – يوجد أمثال الموظفين الذين ذكرتهم . أعرف أنه يوجد بين الموظفين الذين يحيطون بي هنا ، العاجز والفاسق والسارق . ولكن ما العمل ؟ إني أغمض عيني على أعمالهم ، فيجب عليك أنت أيضاً أن تغمض عينيك . »

أنا لا أرى لزوماً – في هذا المقام – إلى شرح ما جرى بعد ذلك . ولكني أقول : إنه قد تيسر لي – بعد مدة – أن أرى الرجل الذي كان جابهني بهذا الاعتراف الفادح وأتحفني هذه النصيحة المخدرة ، قائداً لجيش الحرية الذي زحف على عاصمة الدولة العثمانية ، وخلع عبد الحميد ، وقضى على الحركة الرجعية الشهيرة . وأما المدة التي مضت بين هذا الزحف وتلك الملاقاة فقد كانت أقلّ من أربع سنوات !

*

إن الأمثلة التي ذكرتها آنفاً ، لم تكن من الامور الشاذة ، بل إن في هذه اللحظة لا تزال تتوارد على ذهني عشرات من أمثالها ، من التاريخ القريب والبعيد ، في الشرق وفي الغرب .

ولذلك ترونني دوماً واسع الأمل وقوي الرجاء . فلا أزال أقول : إن يومنا أحسن وأصلح من أمسنا ، وغدنا سيكون أحسن وأصلح من يومنا ... وذلك بالرغم مما يمازج يومنا من المساوىء

والمآسي ، وبالرغم مما يحدق بغدنا من المشاكل والمخاطر .

وعندما أقول : يومنا هذا أحسن وأصلح من أمسنا ، لا ألقي الكلام جزافاً ، بل أقول ذلك عن تفكير تام ، وبعد تأمل عميق ، ومستنداً الى وقائع وذكريات كثيرة .

فاني لا أزال أذكر العهد الذي كانت فيه مصر تجهل القضية العربية جهلا يكاد يكون مطبقاً ، وتعرض عنها إعراضاً تاماً ، إن لم تلعنها وتخاصمها أحيانا .

ولا أزال اذكر الدهشة التي اعترت جماعة من طلاب الجامعة المصرية الذين زاروا العراق قبل نحو ستة عشر عاماً ، عندما رأوا أن الطلاب العراقيين يعتبرون أنفسهم عرباً .

ولا أزال أحتفظ بما كتبه أحد المعلمين العراقيين عن الفكرة العربية ، مدعياً بأنها « دسيسة سورية » ابتدعها رهط من السوريين لينعموا بخيرات العراق .. ولا أزال أذكر الترحيب الذي كانت تلقاه أمثال هذه الدعايات في كثير من الأوساط .

ولا أزال أذكر الدعايات التي كانت تنشر في لبنان ، لأيهام الناس بأنهم لا يمتون الى العروبة بصلة ، وبأنهم من أحفاد الفينيقيين إن لم يكونوا من نسل الصليبيين .

ولا أزال أذكر الكتابات الصادرة من قلم أحد الوزراء في سورية ، وهي تنعت الثورة العربية بوجه عام والثورة السورية بوجه خاص بأشنع النعوت ، وتدعي بأنها أضرت البلاد ، وأخرت العمران .

إني أذكر كل ذلك وأذكر المئات من أمثال ذلك ذكراً

واضحاً وقوياً .. فأقول بلا تردد : إننا - خـــلال ربع قرن - اجتزنا مراحل خطيرة ، وذللنا عقبات كثيرة ، ربما كانت من أدق المراحل وأخطر العقبات . والشوط الذي قطعناه في هـذه السبل الوعرة ، بعد تلك البداية الشاقة ، يكفي لشحذ عزيمتنا على مواصلة السير - واجتياز العقبات الباقيـــة - بخطى أسرع وأثبت من الخطوات السالفة ، بدون تشاؤم ولا قنوط .

وقد يقول لي قائل: ولكن الجهود التي يذهب معظمها سدى - ضحيـــة للاغراض الشخصية - والفرص الثمينة التي تضيع بين الدسائس الدنيئة ...؟

غير أني أقول بلا تردد : هذه من سنن الحياة التي لا رادّ لها .

فان الحيـاة كفاح ونضال بكل معنى الكلمة ؛ وهو يتطلب - بطبيعته - الموت والفناء للكثير من الاشياء .

وركب التقدم يحتاج على الدوام الى وقود كثير من الجهود والدموع والدماء .

واذا نظرنا الى حقائق الامور بنظرات فاحصة دقيقة ، استطعنا أن نقول : ان بهجة الربيع ، ما هي إلا رداء فضفاض يستر عن الانظار فناء الملايين من البذور وموت الملايين من الاحياء .

فلا يجوز لنا - والحالة هـذه - ان نطمع بالحصول على ثمرات فعلية من جميع الجهود التي نبذلها ، بل يجب علينـــا أن لا نتلهف كثيراً على ما يبقى منها ، بدون ثمرة ظاهرة .

ولا شك في أن البيئة التي نعمل فيها - في هذه المرحـــلة من تطورنا الاجتماعي والسياسي - لم تكن من الأتربة الخصبة التي تثمر

فيها الجهود الصادقة أوفر الثمرات، بل هي من الأتربة الضعيفة التي يفنى فيها قسم كبير من البذور .

ولكن علمنا بهذه الحقيقة ، لا يجوز أن يلقينا في بحر التشاؤم والقنوط.. بل يجب أن يحدو بنا إلى مضاعفة العمل لاصلاح وتسميد ذلك التراب ، مع المبالغة في إحسان البذار ، للحصول على القدر اللازم من المحصول، بالرغم من كثرة البذور التي ستفنى تحت التراب.

فهرس

	ص
مقدمة	٥
فيصل الكبير	٩
لو لم يُخرج الفرنسيون الملك فيصل من سورية ...	٢٣
حول انهيار فرنسة	٣١
بين القوى المادية والقوى المعنوية	٦١
اصول ستر الحقائق ...	٦٧
اختلاف الآراء باختلاف وجهات النظر	٧٥
جامعة الدول العربية	٩٩
لا داعي لليأس ...	١٠٧

١٩٤٨/١/٨٦

DATE DUE

الحصري ،ساطع
صفحات من الماضي القريب
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01038333

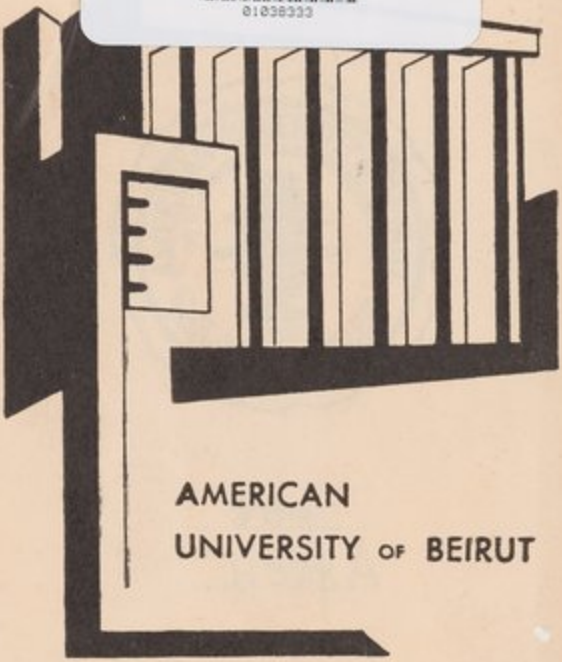

AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

956
H972sA
c.1